مِسْكُ الاِنْتِقَامِ

رواية

بقلم

(هبه السقا)



الكتاب: مِسْكُ الاِنْتِقَامِ

المؤلف : هبه السقا

تصميم الغلاف: أحمد عبد السميع

رقم الإيداع: : ٢٥٦٩٦ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي:
978-977-6780-93-4

الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن
دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

الناشر



رئيس مجلس الإدارة
إكرام عيد

المدير العام
أحمد عبد السميع

لإدارة:
واتس:

إهداء

هذه الرواية إهداء خاص إلى زوجي وشريك
حياتي محمد عادل، أردت أن أخبرك أن
حبك لي وتشجيعك إياً كان الحافز والدافع
للمضي قُدمًا، لقد كنت لي دومًا –وما
زلت–اليد القوية التي تعينني على الوقوف
عند السقوط أو الشعور بالانهزام أو
اليأس، لقد اتكأت عليك كثيرًا، فلم تشكُ
أو تملَّ، بل كنت لي خير سند وخير
معين
فلك خالص حبي وتقديري.

هبة السقا

مقدمة

الانتقام: هو مجموعة من السلوكيات التي تهدف إلى إيذاء شخص **أو** جماعة ممن يُعتقد بأنه مذنب أو مسؤول عن الأضرار التي لحقت بالآخرين.

بمعنىً آخر: الانتقام هو رغبة المنتقم في تحقيق العدالة والتغلب على مشاعر الظلم والقهر،

الانتقام يحمل مشاعر مختلطة بين اللذة والألم، ولهذا قد يُعمي الانتقام أبصار الناس عن العواقب الكارثية التي قد تَنجُمُ عنه.

فالأشخاص الذين يحاولون أن ينتقموا أو يأخذوا بالثأر، يجدون لذة ومتعة حقيقية عندما يرون ضحيتهم تتألم وتموت في المرة الواحدة مائة مرة، فللانتقام سحر عجيب، وتأثير قوي، ونشوة لا تُعرَف لها نهاية.

فلا تتعجب عندما ترى إنسانا مسالمًا وديعًا قد تحوَّلَ في لحظة إلى وحش شرير، يتلذذ ويستمتع بتعذيب ضحيته بدمٍ بارد، فهذه الضحية البريئة كانت سبب شقائه وعذابه، هذه الضحية التي تراها الآن مسكينة مستكينة تطلب الرحمة والمغفرة، لم تَرحَمْ ضعفه وهي في أَوجِ قوَّتِها، فلم تستمع لتَوَسُّلاتهِ أو ترى دُموعَه، وكعهدنا بالحياة دائمًا، فدوام الحال من المحال، تدور الأيام وتتبدل الأدوار، وعندما تُتَاح الفرصة للمقهور، فيتملك زِمَامَ الأمور

وتصبح له القدرة والسطوة، حينها سيختبر رائحةَ الانتقام الزكية، فللانتقام رائحة كرائحة المسك الأبيض النقي، كُلَّما استنشقه صاحبه شَعُرَ باللذة والزُّهُوِّ وعدم الاكتفاء، وقتها فقط سيعرف أنه يستنشق مسك الانتقام.

مسك الانتقام

فتحتُ عينيَّ، وأفقت من غيبوبتي منتفضًا لأجد
نفسي مُستلقيًا على ظهري في مكان
ضيق جدًا وخانق، كان الظلام الحالك
يحيط بي من كل مكان، شَعُرت برأسي
يؤلمني بشدة من الخلف إِثرَ الضربة التي
تَلَقَيْتُها، حاولتُ أن أرفعَ يدِيَ اليسري
أتحسس موضع الألم في رأسي، ولكنني
تفاجأت بِثْقل قابع على نصف جسدي
الأيسر، يُكبِّل يدي، ويمنعني من الحركة،
وجدت نفسي مُقيَّدًا، حبيسَ مكانٍ ضيق
ومظلم، شَعُرْتُ بأنني لا أستطيع أن
أتنفس بسهولة، فالهواء من حولي خانق
وثقيل وله رائحة نفاذة كريهة تدفعك

للتقيؤ، سَعُلْتُ بشدة، فرائحة المكان مثيرة للغثيان،
رائحة لا تُحْتَمل، كنت ما زلت مُشوَّشًا،
ولم أستردَّ كامل وعيي، ولكنني حاولت أن
أتحامل على نفسي كي أتبين هذا المكان
الموحش المقزز الذي أصبحت أسيرَه
فجأة.

يا إلهي! قلبي منقبض، أين أنا؟ وما هذا المكان
الغريب المثير للوحشة والذعر؟ كان
الظلام الأسود يغلفني من كل مكان، حتَّى
أنني لم أستطع أن أرى يدي، حاولت
بصعوبة بالغة أن أُخلِّص جسدي وذراعي
من الثقل المُلقى فوقه، حررت يدي أخيرًا
التي، شعرت بأنها أصبحت مخدرة
بالكامل، وحاولت بصعوبة أن أستقيم في
جلستي فاصطدم وجهي بلوح خشبي،

فزعت أكثر وشعرت أن قلبي كاد أن ينخلع من
بين ضلوعي، تيقنت وقتها أنني حبيس
صندوق خشبي مُحكَم الغلق عليَّ، ومن
شدة الخوف، وهول الموقف شعرت بأن
قذيفة أدرينالين قد قُذفت برأسي لأستعيد
كامل وعيي دفعة واحدة، ويا ليتني ما
استعدته أبدًا، أدرتُ وجهِي يمينًا ويسارًا
بفزعٍ، وحاولت أن أتحسس جوانب
الصندوق من الداخل، لأجد أي مخرجٍ
أنجو منه، فتبينت وجود شخص مستلقِي
بجانبي، كان صغير البنية، ولا يتحرك أو
يتنفس، انتفضتُ برعب، شعرت أن عقلي
ينبِضُ بقوة داخل رأسي، يحاول أن
يستوعب ما نحن فيه، والأفكار تتصارع،
أيكون ذلك نعشًا وأنا محبوس فيه بجانب جثة؟

يا إلهي، ما الذي أتى بي إلى هذا المكان
المخيف؟ ومن هذا الشخص الذي دفنت
معه حَيًّا؟ تملَّك الرُّعبُ مِنِّي، سَرَتِ
البرودة في كامل أوصالي، أحسست
بالدماء تهرب من عروقي، شُلَّ عقلي عن
التفكير، وسيطر عليَّ الهلع، شعرت بكل
قطرة عرق، وهي تنفد من كل ذرة في
جسدي، شعرت بأنني أهبط إلى الهاوية،
حتى إن الصراخ لم أقوَ عليه، وفجأة،
سمعت صوت أنفاس ثقيلة تخرج من
الجسد الصغير الممدد على يساري،
فزعت أكثر وأنا أرى جثة بجانبي تتنفس
وتتململ في حركتها، جَحظت عيناي،
صرخت صرخة مكتومة، ولكنَّ صوتي لم
يبرح حنجرتي، أحسست أنني فقدت

صوتي والقدرة على الكلام أو الحركة، تخشَّبَ جسدي، وبعد وهلة من التركيز والإنصات تيقنت أنها ليست بجثة، ولكنه إنسان حي بائس مثلي جمعنا القدر، وكتب عليه نفس مصيري المشؤوم، استكنت بحذر وترقُّبٍ، لم أستطع أن أصدر أي صوت، أو أن أحاول أن أفيقه من غيبوبته لأسأله عن هُويته، فمن الواضح أنه لم يستعد وعيه بعد، كنت أريد أن أصرخ بأعلى صوتي، أن أستغيث وأطلب العون، ولكن الهلع الذي تملكني أخرسني وعَقَد لساني، كان الظلام والسكون القاتل ورائحة المكان المثيرة للغثيان تغلفنا، بعد لحظات من الآنتظار الحذر شعرت بالشخص القابع بجانبي يتحرك ببُطءٍ، وسمعته

يصدر أنينًا ضعيفًا ومُنهَكًا، ثم أحسست بجسده
الصغير ينتفض من الفزع، لأسمع
صرخات هستيرية تستغيث فجأة يصرخ
باسمي: " هاني هاني هاني" غاص قلبي
في أعماق صدري عندما سمعته يستغيث
باسمي، لم أرد أن أصدق أذنيَّ، لكنني
للأسف تعرفت على الفور على صاحب
الصوت المُنتحِب، لا، لا يا ربي أرجوك،
لا تختبرني هذا الاختبار، فهو فوق
احتمالي، غير معقول، أخبِرني أنني في
كابوس أو أيقظني منه الآن، لا أصدق
أن شريكي البائس المتقاسم معي في هذا
النعش الضيق لم يكن سوى أختي
الصغرى "إلهام"، إلهام حبيبتي، طفلتي
البريئة التي لم تتجاوز السبعة أعوام

من عمرها، بادرتها محاولًا التحكم قدر الإمكان
في نبرات صوتي المرتعشة: "إلهام
حبيبتي أنا هنا جنبك" أنصتت إلهام إلى
صوتي بنحيب مكتوم، وكأنها تحاول أن
تستوعب أن معها أحد في هذا المكان
القاسي حالك الظلام، أكملت: "ما
تخافيش يا إلهام، أنا معاكي" انفجرت
الصغيرة في البكاء أكثر، بين عدم
التصديق بين إحساسها المتنامي بالفزع،
شعرت بها تحاول أن تحرك يدها الصغيرة
بلهفة وصعوبة تجاهي لتتحسسني وتتأكد
من وجودي بجانبها، حاولتُ أيضًا
بصعوبة أن أمد يدي لأمسك بيدها، كنا
نبحث عن الأمان في لمسة نتلامسها
فنشُدُّ بأزرِ الأمان على رِخوةِ الخوف،

قبضت على أصابعها الصغيرة بصعوبة فتمسكت بيدي بقوة، وقالت بصوت مرتعش أجهده البكاء: "إحنا فين ياهاني، إيه المكان الوحش ده؟ أنا خايفة أوي".

كيف أجيبها وأخبرها الحقيقة؟ كيف أخبر هذه الصغيرة البريئة هول ما نعيشه؟ هل سيستوعب عقلها هذا الكم من القسوة؟

أقول لها بأنه نعش مظلم مغلق علينا بابه بإحكام، بالتأكيد لن تفهم كلمة نعش، حتى لو أفهمتها الحقيقة، ما الفائدة؟ لن تستوعب براءتها ونقاءها أن يقوم إنسان بهذه الفعلة الشنعاء الشيطانية، ويتجرد من كل المشاعر الإنسانية، ويدفن شخصَين حيَّيْن أحدهما طفلة.

يا إلهي! ما ذنب هذه الصغيرة لتكون في هذا الموقف القاسي الذي لا يتخيله عقل إنسان أو يخطر على بال الشياطين؟ كانت "إلهام" فَزِعَةً جَزِعَةً، وفي لحظات حاولت السيطرة على أعصابي المحطمة، تمالكت نفسي وحاولت التحكم في نبرة صوتي المرتجفة، وحدثتها لكي أُشعرَها بالأمان، على الرغم من أنني كنت فِزَعًا أكثر منها، وقلت لها بصوت مطمئن: "إلهام، اهدي إحنا حنخرج من هنا" ثم أكملت "ما تخافيش يا حبيبتي إحنا لو كسرنا الصندوق ده حنقدر نخرج من هنا ونروح بيتنا" شعرت بها تَهُزُّ رأسها بلهفة: "موافقة".

حاولت كثيرًا ضرب جنبات الصندوق بكلتا يديَّ محاولًا كسرَه، وعلى الرغم من أنه مصنوع من خشب رديء، فإن قواي كانت خائرة، وأطرافي مُخَدَّرَة، فلم أستطع تحطيم هذا الصندوق اللعين، استسلمت للانهيار الذي تملَّك مني، زادته صرخات وبكاء "إلهام" التي لا تنتهي أو تتوقف، عندما أيقنت أنني فشلت في تحطيم الصندوق وإخراجها منه، شَعرتُ أن عقلي شُلَّ عن التفكير، مع مرور الوقت أصبح الهواء خانقًا، وأخذ الأكسجين يقل بسرعة داخل الصندوق، كُنتُ أُحَدِّثُ "إلهام" باستمرار لكي أتأكد من أنها لم تفقد وعيها، ولأشعرها بالطمأنينة والأمان، ولكن دون جدوى؛ فالمسكينة فَزِعة من

هول الموقف، وأنا أُحَدِّثُها شَعُرتُ بصغيرتي بدأت تفقد وعيها بسبب قلة الأكسجين الذي بدأ يقل بداخل الصندوق، فزعت حاولت مرارًا يائسًا أن أتوقف عن التنفس، يا ليتني أستطيع أن أسكت أنفاسي وأتخلص من حياتي لأوافِرَ لصغيرتي هواءً أكثر لتتنفسه، تمنيت الموت ألف مرة لتخمد أنفاسي، فلا أزاحم صغيرتي الهواء الشحيح الذي تتنفسه.

راودتني صورة أبي الحبيب، لو كان في موقفي، أعرف أنه سيقاوم لآخر أنفاسه، فهو لم يعرف الاستسلام واليأس طوال حياته، ويبدو أن هذا أعطاني دفعة قوية وحافزًا، ورفضت أن أستسلم لمصيرنا المحتوم، فلو استسلمت لن تقوى أختي المسكينة

على الصمود وحيدة، وقررت أن أحارب لآخر
نفس مثلما علمني أبي، فجأة نبضت
بداخلي قوة وإرادة لإخراج أختي الصغيرة،
فلن أسمح أن أراها تموت وتلفظ أنفاسها
أمامي، وأنا أقف مستسلمًا أندُبُ حَظَّنَا
العَثِر، فحتى لو قُدِّرَ لنا أن نموت هنا،
سأموت شجاعًا مدافعًا عن صغيرتي
لآخر نفس يخرج من صدري، كانت
"إلهام" ما تزال تنتحب بخوف متشبثة
بيدي، استجمعت قوتي ومددت ذراعي
عاليًا محاولًا أن أُزِيحَ اللوح الخشبي الجاثِمَ
فوقَنا بكل ما أوتيت من قوة، ولكن ذراعي
لم تقوَ على حمله أو حتى تحريكه،
سمعت "إلهام" تشهق عدة شهقات
مختنقة، وكأنها تصارع الموت، وقبضت

بيدها الصغيرة على ذراعي، قالت بصوت
متحشرج: "أنا مش عارفة أتنفس، مش
عارفة أتنفس، أنا حموت يا هاني"
كلماتها و صوتها وإحساسي بفقدها،
أعطوني قوة لا أعرف من أين أتتني،
فأخذت أضرب الصندوق الخشبي بكل ما
أوتيت من قوة، ثم انزلقتُ بكامل جسدي
لآخر الصندوق، وأخذت أركل جوانبه
بقدمِي ركلات قوية ومتلاحقة، شعرت
ببعض قطع الخشب تنغرس في لحمي،
وبالدماء تتدفق من قدمي وساقي، فلم
أهتم؛ فالذعر من فقد "إلهام" كان أكبر
من أي إحساس بالألم، أحدثت ركلاتي
بعض الكسور في جسم الصندوق، والتي

كانت كفيلة بإدخال المزيد من الهواء الذي قد يمنحنا فرصة أخرى للحياة.

استنزفت كل ما أملك من مجهود، حتى خارت قواي، فجلست في صمت ألتقط أنفاسي المنهكة، وأحاول أن أستجمع أفكاري، طردت من تفكيري أيَّ فضول لمعرفة أين أنا؟ وماذا أتي بي إلى هنا؟ وسيطرت عليَّ فقط محاولة إنقاذ أختي الصغيرة، والخروج بها سالمة من هذا المكان اللعين، كانت "إلهام" تنتفض من الذعر والظلمة، لا تملك إلا الصراخ من الفزع، حاولت كثيرًا أن أحافظ على هدوئي ورَبَاطة جأشي، ولكنني -لا إراديا- تملَّك الخوف مني، وسيطر عليَّ، فلم أعد أقوى على التظاهر بالقوة والثبات أكثر من

ذلك، فأخذت أصرخ بأعلى صوت وأضرب
الصندوق اللعين بكل ما أوتيت من قوة،
علَّ يسمعنا أحد، ويأتي ليخرجنا من هذا
النعش المخيف، أصابتني أنا وأختي
هيستيريا الخوف، ظللنا نصرخ وننتحب
ونطلب الغوث، حاولنا كثيرًا تحطيم باب
هذا الصندوق اللعين الجاثم على
صدورنا، ولكن بلا فائدة، ظلَّت "إلهام"
ترطم الصندوق بكفَّيْهَا الصغيرين،
وتصرخ: "يا ماما، أنا خايفة، يا ماما
أرجوكي تعالي خرجيني" عند سماعي
المسكينة تستغيث بأمنا وتطلب مساعدتها
توقفت عن الصراخ، ضممت قبضتَي
يدَيَّ على صدري، وأخذت أنتحب في
صمت وضعف، فصغيرتي المسكينة لا

تعلم أن أمنا قد ماتت وتركتنا وحيدين بلا أب ولا
أم، ظلت "إلهام" تردد بإصرار شديد
"ماما، ماما، أنا خايفة، الحقيني يا ماما
حموت" لم تملَّ أو تيأس إلهام من
الاستغاثة بأمها، كانت الصغيرة متيقنة أن
أمنا ستستجيب لتوسلاتها، وأنها ستأتي
لتنقذنا مما نحن فيه، لكن هيهات يا
ملاكي البريء أن تأتي أمنا إلينا،
فالأموات نائمون في قبورهم لا يسمعون
أو يشعرون بنا.

ووسط صرخات أختي واستغاثاتها المتكررة
بأمنا، سكتت "إلهام" فجاة وغاص قلبي
في أعماق صدري عندما سمعنا طقطقة
باب اللوح الخشبي ينزاح ببطء من فوق
رأسينا، شعرت وكأن قوة خفية أرادت أن

ترحمنا من عذابنا، فامتدت وأزاحت عن صدورنا هذا الثقل لتنقذنا.

انفتح النعش فجأة، فأخذنا شهيقًا قويًّا كاد أن يفجر رئتينا، كُنَّا على وشك الاختناق، سَعُلْنَا كثيرًا، فتحنا أعيننا جدًّا، ولكن المكان كان مظلمًا أيضًا، لا يختلف عما كان عليه داخل النعش الخشبي، ولكن الرائحة النتنة تزداد قوة، تحسست بحذر حوافَّ الصندوق، وتحاملت على إصابتي، وقفزت خارج النعش فارتطمت قدماي بألواح خشبية ذات ملمس لزج غريب، لا يهمني، المهم أنني تحررت أخيرًا أنا وأختي من هذا الصندوق اللعين، نظرت حولي بريبةٍ، أبحث عن الشخص الذي ساعدنا واستجاب لنداءات صغيرتي،

فقلت مناديًا بصوت مرتعش: "في حد هنا؟ " لكن لم يجيبني أحد، مددت يداي أحمل أختي "إلهام" لأخرجها من مكانها المخيف، وقفت حائرًا ثم تذكرت فجأة أن في جيبي الخلفي هاتفي المحمول فتحسست جيبي، وأخرجت الهاتف، ولكن كانت البطارية قد أوشكت على النفاذ، ولا توجد شبكة في المكان، قمت بتشغيل إنارة المصباح لأتعرف على المكان حولي، قمت بتحريك النور في المكان حولي، لأتلقي أكبر صفعة في حياتي، لإننا داخل غرفة ترائبية ضيقة لا يوجد بها أي مخرج سوى سُلَّمٍ صغير مكوَّنٍ من ثلاث درجات، وفي آخره باب إسمنتي محكم الغلق، نظرت تحت قدميَّ لأصطدم أن الألواح الخشبية

التي غاصت فيها قدماي، والتي توهمت أنها
ألواح خشبية، ما هي سوى بقايا عظام
بعض الجثث واللحم المتحلل الذي تأكل
منه الديدان بلا رحمة أو هوادة، تقيأت
حتى أفرغت ما في معدتي من عصارة،
ثم وقفت أرتجف غير مصدق ما هذا، لا
لا غير معقول، أرجوك يا إلهي ترفَّق بنا
قليلًا، ليس لهذه الدرجة من البشاعة،
أيعقل داخل قبر.

شعرت بالدوار وأن قدماي لم تعد تقوى على
حملي أكثر من ذلك، سقط الهاتف من
يدي وهويت على ركبتيَّ في انكسار
ويأس، أما "إلهام"المسكينة فقد جحظت
عيناها من الفزع، وأصابها الهلع أخذت
تنظر إلى الجثث وتصرخ وتحتمي بي،

كانت تنتفض من على الأرض، ترفض أن تلامس أقدامها البريئة أشلاء الجثث المتعفنة، ظلت"إلهام" تنظر لبقايا الجثث حولنا، وتصرخ بأعلى صوتها، الحقيقة أنني لم أعد أستطيع أن أهدئَ من رَوعها بعد الآن، أو على الأقل أخبرها أن تطمئن، وأن كل شيء سيسير على ما يرام، كنت محطمًا أكثر منها، يائسًا وقليل الحليلة، وتسرب داخلي شعور غريب أن الموت رحمة لي مما أعيشه الآن، وأنني يجب أن أستسلم لقدري ومصيري المحتوم وأن أتقبله بشجاعة، لكنني تحاملت على بؤسي واستجمعت ما تبقي بي من قوة وقلت لها مهدئًا إياها ممسكًا يدها: "اهدي يا "إلهام" عشان نفكر

كيف نخرج من هنا" تشبثت برقبتي بقوة، ودفنت رأسها في كتفي تخفي عن عينيها بشاعة المنظر، شعرت بجسدها النحيل ينتفض من الذعر بين ذراعي، ما ذنب هذه البريئة لتعيش هذه المأساة وتجد نفسها بداخل قبر مملوء بالموتي والجثث المتحللة؟!

احتضنتها أكثرَ مربتًا على شعرها مُطَمْئنًا إياها، قلت لها: " ما تخافيش يا " وقبل أن أكمل جملتي أبى القدر أن يرحم ضعفنا، أو أن يتركنا قبل أن يقضي على آخر بصيص أمل نتعلق به، ففي هذا الوقت نفذت بطارية الهاتف، وانطفأ النور وغَلَّفَنا الظلام القاتل مرة أخرى، أطلقت إلهام صرخة قوية مدوية رجَّت أرجاء المقبرة

عندما خيم الظلام علينا مرة أخرى، وهنا انتفض جسدي من صرختها، وأمسكتها من كتفيها، وأخبرتها بحزم: "اسمعيني يا إلهام، امشي ورايا لحد السلم، وهناك حنادي أنا وأنتي بأعلى صوتنا، وأكيد حد حيسمعنا ويخرجنا"

شعرت بها تهز رأسها موافقة ، جَثَوْنا على ركبتينا زاحَفَيْن على أرجلنا، وأيدينا نتحسس طريقنا إلى سلم القبر، فارتطمت يدي بجمجمة فسحبتها بفزع، وارتطمت إلهام بأشلاء وبقايا جثث، فأطلقت صرخات انتفض على إثرها جسدانا، كانت الجثث والعظام، ورائحة الجثث المتعفنة تحيط بينا في كل مكان وتُزكِمُ أنوفَنا، ولكننا تحاملنا على أنفسنا، ما إن

وصلنا إلى السلم صعدنا درجاته الثلاث، وكأننا
نصعد قمة جبل إفريست، صرخنا بأعلى
صوتنا، حتى إن صوت صراخنا هزَّ
أرجاء القبر، ظللنا نصرخ ونستغيث،
ولكن لم يسمعنا أو يشعر بنا أحد، لا
أعرف كم مضى علينا من الوقت، ونحن
على هذه الحال، لا جدوى من طلب
النجاة والخلاص، يبدو أنها النهاية، أنهكنا
التعب، وضاع صوتنا وسط صمت
الموتى والقبور، فلم نعد قادرين على
الكلام، وبأيدي مرتعشة، وعيون باكية
تحسَّسنا طريقنا مرة أخرى، ونزلنا من
درجات السلم، وأخذت أزيح بيدي أشلاء
الجثث من طريقي و"إلهام" تزحف خلفي
مرتعشة، زحفنا حتى اصطدمنا بحائط

فأسندنا ظهرنا عليه، هوينا على الأرض الترابية منهارَيْن ومُحَطَّمَين، كنا في حالة يُرثي لها، لا ندرك مصيرنا، سيطرت علينا أحاسيس مختلطة من الفزع واليأس وعدم التصديق وقلة الحيلة، ووسط كل ذلك انتابتني هواجس، فظللت أتساءل متحيِّرًا من الذي ساعدنا وأخرجنا من النعش الخشبي؟ هل معنا شخص آخر في هذا المكان المخيف ولكننا لا نراه؟ أيكون شبح جثة من الجثث سمع توسلاتنا فرفق بحالنا فأراد مساعدتنا؟ هل من الممكن أن يساعدنا مرة أخرى ويخرجنا من هذا القبر اللعين؟ ما هذه الأفكار الغبية التي تنتابني الآن أشباح وعفاريت؟ يبدو أنني فقدت عقلي، وكيف لا أفقد عقلي وأنا

حبيس مقبرة محاط بهذا الكم من الجثث؟ صرفت
هذه الأفكار اللا عقلانية عن رأسي،
وجلست مرتعشًا أتصبب عرقًا في صمت،
وجلست "إلهام" ملتصقة بي ترتجف بقوة،
لم يبدد صمت المكان سوى صوت
اصطكاك أسنان "إلهام" من الخوف،
كانت المسكينة تضم ذراعيها إلى صدرها،
حتى إنها من رهبة المكان لم تعد تقوى
على الصراخ، كانت دموعها تنزل في
صمت، غَلَّفنا سكون وظلمة القبر، شعرت
بجسد "إلهام" يرتجف بقوة فحملتها برفق
وأجلستها على ركبتَيَّ، وأحطُّها بذراعيَّ،
وضممتها إلى صدري، وأخذت أمسح
على شعرها الطويل الجميل المبلل
بقطرات عرقها، كنت أشعر بدقات قلبها

المرتجف على صدري، فتزيد قلبي ألمًا وحسرة،
قالت "إلهام" والبكاء يقطع صوتها: "أنا
خايفة أنا عايزة ماما"
لم أدرِ بماذا أُجيبها، ولكنني قلت لها مربتا على
صدرها: "حاضر"
ظلت الصغيرة تبكي حتى أنهكها البكاء، وفي
النهاية استسلمت واستكانت في أحضاني
وأغمضت عينيها، عمَّ الصمت فأرحت
رأسي إلى الخلف على الحائط فلا مفر،
ولا داعي للمقاومة، فالنهاية قريبة جدًا
وحتمية، وفي حالتنا ليس الموت بسييء،
أحيانًا يكون الموت رحمة من العذاب
والرعب الذي نعيشه الآن، كما أننا
سنذهب إلى أبي وأمي اللذين سيعتنيان
بي وبصغيرتي جيدًا، فأنا لم أعد أحتمل

ألمًا ومعاناة أكثر، عندما نذهب للسماء سنكون بمنأى عن أذى وكره البشر.

مع الوقت اعتادت عيني على الظلام، فنظرت حولي في القبر الموحش الذي يحتضني أنا وأختي، شعرت بالمرارة والألم عندما تذكرت بيتنا الفخم الجميل في حي المعادي الشهير، كان بيتنا عبارة عن فيلا مكونة من طابَقْين، تذكرت حديقة منزلنا الواسعة الغَنَّاء، وأشجار الفاكهة العالية التي تحيط أسواره من الداخل، أخذت نفسًا عميقًا، وتذكرت رائحة زهرة التوليب العطرة التي حرصت أمي على زراعتها والاعتناء بها بنفسها، فأمي تعشق أزهار التوليب أكثر من باقي أنواع الأزهار، وكل يوم تزين به أركان منزلنا الحبيب،

وذات يوم سألتها عن سر تعلقها بهذه الزهرة فابتسمت بسعادة وقالت لي: " زهرة التوليب يا هاني بترمز للحب والإخلاص، عشان كده دايمًا بحب أزيِّن بها بيتنا عشان يفضل مليان بالحب" كانت والدتي تشع حبًا ورومانسية في كل مكان تحل فيه.

وقتها أتذكر أن أمي حكت لي قصة فارسية قديمة عن شاب يسمى "فرهاد" وقع بحب فتاة تُدعى "شيرين" وقد كان على سفر عندما وصله خبر وفاتها، فحزن عليها حزنًا شديدًا ثم دفعه يأسه إلى القفز بحصانه من قمة أحد الجبال ليلقى حتفه، وحين نزفت دماؤه كانت تنبت من كل

قطرة دماء زهرة توليب، وذلك رمزٌ لحبه المخلص.

هذا البيت قد شهدت ضحكاتنا وذكرياتنا، كنا نقضي فيها أسعد أوقاتنا وسط حب وعناية والدي ووالدتي .

كان والدي أبًا مثاليًّا ورجلًا متفردًا، قلما يجود الزمان بمثله، كنت شديد الارتباط والتعلق بي ، قربني والدي منه منذ نعومة أظافري، غرس بداخلي قيم ومبادئ جعلني أفتخر أنني أنتمي إليه وأشرف بحمل اسمه، كان والدي مهندس ميكانيكا ورجل أعمال معروف يمتلك مصنعًا كبيرًا للملابس الجاهزة، اشتهر والدي بالذكاء والاستقامة والنزاهة في العمل، كان والدي يدير مصنعه بمهارة واقتدار منقطع

النظير، فكان مثارًا لإعجاب وتقدير كل من تعامل معه، فالكل يشهد بخُلُقِه وحبه للناس وحبه لفعل الخير، زادت على هذه الصفات طباعه الهادئة، وابتسامته السمحة التي لا تفارقه أبدًا مهما واجه من ظروف أو صعاب، كان والدي يراعي الله في ماله، فلم يبخل على فقير، ولم يرد يد سائل، فأغدق الله عليه من نعمه وفتح عليه أبواب رزقه

فعندما بلغت الحادية عشرة من عمري، أنجَبَت والدتي أختي الصغيرة "إلهام" أتذكر سعادة أمي عندما علمت بحملها، ففي البداية لم تصدق، فوالدتي فقدت الأمل لسنوات طويلة في قدرتها على الحمل مرة أخرى، وخاصة بعدما أكد الأطباء لها أن إمكانية

حملها ثانية ضعيفة جدًا، ولكن شاء القدر أن يهدي والدتي أختي الجميلة" إلهام" بعد انتظار وصبر دام أكثر من أحد عشر عامًا، أتذكر سعادتنا البالغة بقدومها، وسعادة والدي المفرطة ودموع الفرح التي غمرت وجه وهو يقبلها، حتى أنني أتذكر يده المرتعشة وهو يحملها لأول مرة خوفًا من أن تقع منه أو أن يؤذيها، كانت وجه "إلهام "جميل كالملائكة أبيض كالبدر ليلة اكتماله ملامحها دقيقة ومنمقة جمالها يخطف القلوب قبل الأنظار تجبرك أن تتامل جمالها الخلاب وبراءة عينيها بدون ملل أو كلل، حتى إن والدي في البداية أراد أن يسميها "جنة" لأنه لم يصدق أن جمالها هذا ينتمي إلى جنس البشر فاقتنع

أنها حورية آتية من الجنة، وأنها هدية الله له أهداها إياه من الجنة، ولكن والدتي لم تقتنع باسم "جنة" وأصرت على تسميتها "إلهام" على اسم والدتها رحمة الله عليها، وكعادة أبي السمحة لم يستطع أن يخالف رغبة زوجِه الحبيبة وعشرة عمره فأسماها "إلهام".

وبمرور الأيام أصبحت "إلهام" نقطة ضعف والدي، وسعادته التي أكتملت بقدومها، حتى إنه أقلع عن التدخين لكي لا يؤذيها برائحة الدخان، وهو ما فشلنا فيه أنا وأمي على مدار سنوات طويلة، فحرص دائمًا أن يذكرني أنني رجل، والرجل يجب أن يكون قادرًا على تحمل المسئولية مهما كانت صعبة، الرجل يعتمد عليه ويتحمل

مسؤولية الأضعف منه، دأب والدي يوصيني أن أعتني وأحافظ على أختي الصغيرة وأحميها، فهي بنت وصغيرة وستحتاج إلى لسند والحماية؛ ونظرا إلى أن فارق العمر بيني وبين "إلهام" كبير –أحد عشر عامًا– فلقد أحببتها وحنوت عليها كابنتي وليست كأختي.

ضممت "إلهام" إلى صدري بقوة وكأنني أنفذ وصية والدي وأحميها من غدر الدنيا والبشر، وبكيت بحسرة وألم من هذا الوضع البائس الذي وجدت نفسي فيه مع أحب شخص إلى قلبي، بالتأكيد الصغيرة كعادتها تعتمد عليَّ، وتنتظر نجاتها على يدي، وأما أنا فلو كان الأمر بيدي يا صغيرتي كنت أهديتك عمري كله، ولا

تمري بهذه اللحظات القاسية، ولكنني ضعيف مثلك لا حول لي ولا قوة.

أرجوك، سامحني يا والدي الحبيب، فأنا لم أستطع أن أفي بعهدي لك، ولم أستطع أن أحمي صغيرتنا وأحافظ عليها كما وعدتك، ماذا أفعل وأنا وهي حبيسا قبر مخيف مظلم، تحيط بنا الجثث من كل مكان، وأشعر برائحة الموت تقترب منا، فنحن في مكان من المستحيل أن يسمعنا أو يشعر بنا أحد حتى نموت.

ضممت "إلهام" بقوة، آاااهٍ يا صغيرتي، كم أشفق عليك، فما أصعب هذه الميتة !! ألم يكن في قلب قاتلنا القليل من الرحمة، فيختار لنا ميتة أقل بشاعة من هذه؟! ألهذه الدرجة لم يبقَ في قلبه أيَّة شفقة فيقرر أن

يدفننا أحياء؟! ما الذي فعلته أنا وصغيرتي
لنستحق هذه الميتة؟! فهي طفلة
كالملائكة، وأنا لم أؤذِ شخصًا في حياتي.
آااااااه يا ربي لطفك بي وبصغيرتي، فأنت تعلم
كم هو قاسٍ أن أراها تموت ببطء هكذا
أمام عينيَّ.
بلَّلَت الدموع المنسابة من عينيَّ وجه "إلهام"
المستكينة على صدري، فرفعت رأسها
تنظر إليَّ ومدت يدها الصغيرة تتحسس
وجهي وتمسح دموعي، وقالت لي بحنان
"أنت بتعيط يا هاني؟" لم أستطع أن
أجبها، ولكن أجابتها دموعي المنهمرة
على خدي، فأخذت تمسح دموعي بكفَّيْها
الصغيرتين وأكملت ببراءة "ما تخافش يا
هاني أكيد ماما أو بابا هييجوا يخرجونا

من هنا" كانت براءتها تُدمي قلبي وتزيد الموقف قسوة، ولكنني هززت رأسي موافقًا، وانتزعتُ ابتسامة وقبلت رأسها عدة مرات ثم أغمضت عيني مدعيًا رغبتي في النوم.

تذكرت عمق حب والدي لي وارتباطه القوي بي، وكيف دأب على اصطحابي معه إلى المصنع منذ طفولتي، وعلى الرغم من صغر سني واعتراض والدتي، فإنه كان يتحجج لها دائمًا بأنه يريد أن يخفف عنها الأعباء، وأن تتفرغ للمولودة الصغيرة التي تحتاج إلى الاهتمام والرعاية، كانت والدتي تبتسم وتسايره وهي تعلم الحقيقة، وهو أن والدي يريدني أن أتحمل المسئولية من صغري وأن أعتمد على

نفسي، أراد والدي أن أتعلم منه كل شيء في إدارة المصنع، وأن يسقيني كل خبرته في العمل فلا أقع فريسة لأحد، كان يسابق الأيام والسنوات حتى يراني أمامه رجلًا يُعتمد عليه وأتولي زمام الأمور من بعده.

لا أنسى أبدًا أول يوم لي في المصنع، وقتها قرر والدي أن أنتظم في الذهاب إلى المصنع في إجازتي الصيفية، يومها عندما دخلت إلى مكتبه تفاجأت بوالدي قد أعد مكتبًا خاصًّا بي وكرسي، ووضعهم بجانب مكتبه ووضع عليه الكتب التي أحب قراءتها لكي أقضي الوقت دون أن أشعر بالضجر والملل، حتى أنني أتذكر نظرة الذهول التي ارتسمت على وجه عمي" فؤاد" الأخ الأكبر لوالدي، وكان

والدي قد عيَّنه مديرًا للحسابات في المصنع، عندما دخل مكتب والدي فوجدني جالسًا على مكتبي الجديد وقتها ابتسم عمي "فؤاد" واقترب مني وقَبَّلني، وقال لوالدي متسائلًا: "إيه المفاجأة دي؟ أنت جبت معاك "هاني" النهاردة؟ "

فابتسم والدي وقال:" هاني خلاص هييجي معايا كل يوم في الإجازة بتاعته"

رد عمي مستغربًا: "بس "هاني" لسة صغير يا عادل" ثم أكمل "وأكيد حيزهق من القعدة في المصنع وسط العمال، خليه في البيت يلعب مع أخته أو يخرج مع أصحابه"

قال والدي بإصرار: "أنا عايزه يتعلم الشغل بتاعنا من صغره، ويعرف كل كبيرة

وصغيرة في المصنع اللي حيبقي ملكه في يوم من الأيام".

قاطعه عمي "ربنا يديك الصحة وطولة العمر يا عادل".

ابتسم عمي والتفت نحوي وقال مداعبًا: "طالما أستاذ" هاني "هيبجي كل يوم المفروض نخصص له مرتب، ويقبض معانا آخر الشهر".

ضحك والدي كثيرًا من دعابة عمي وقال له: " لا لا متفتحش عينه من أولها مش لما نشوف شغله الأول".

قهقه عمي عاليًا، وأثناء ذلك سمعنا صوت هاتف مكتب عمي يرن، فمكتب عمي يفصله عن مكتب والدي بابٌ داخليٌّ، فقام عمي مسرعًا ليرد على الهاتف قائلًا لوالدي:

"حرد على التليفون وأرجع لك نراجع بعض المستحقات اللي علينا للتجار" فأشار له والدي بالموافقة.

مرت الأسابيع والشهور سريعًا ومع الوقت اعتدت على الإستيقاظ باكرًا في أيام الإجازات والذهاب يوميًّا مع والدي للعمل، فكنت أتابع ما يدور من مناقشات في غرفة مكتب والدي وأحضر معه الاجتماعات والصفقات، كنت صغيرًا وغير واعٍ لما يدور حولي، فكنت أحيانًا أشعر بالضجر وألجأ لقراءة قصص المغامرات والمجلات، ولكنني مع مرور الوقت وجدتني بدأت أتابع والدي باهتمام وشغف وانصرفتُ عن القراءة، وأخذت أراقبه وهو يعمل ويتحدث إلى العمال، ويعطي التعليمات للموظفين

ويعاين الأقمشة بنفسه قبل الموافقة عليها، كنت سعيدًا عندما ألمح لمعة عينيه وفرحته عندما يعقد صفقة ناجحة، اكتشفت صفات لم أكن أعرفها عن والدي من قبل، لمست مدى تواضعه مع العمال وإخلاصه وتفانيه في العمل، فأبي لم يخجل يومًا من أن يعمل بيده، حتى إنه أحيانًا كان يقوم بتصليح الماكينات المتعطلة بنفسه غير عابيء باتساخ يده وملابسه الثمينة.

وعندما بلغت سن الخامسة عشر زاد فضولي وتوسعت مداركي، وكنت قد مللت من قضاء أغلب الوقت في المكتب، ومتابعة العمل من بعيد، فقد ضجرت من قيامي بدور المتفرج، وخاصة أنني حفظت جميع

العملاء بأسمائهم وأرقام تليفوناتهم وطرق سداد كل منهم للمستحقات، وتعرفت على أصول عقد الصفقات الجديدة والاتفاقات، وفي يوم صارحت والدي برغبتي أن أترك العمل في المكتب كنت شغوفًا للعمل بيدي مثله، وأن أقوم بجولات داخل المصنع للتعرف على العمال عن قرب وتخصصاتهم وكيفية تشغيل الماكينات وخط الإنتاج.

لا أنسى هذا اليوم أبدًا، وقتها نظر إلى والدي بسعادة بالغة، واحتضنني بقوة ثم ربت على كتفي باعتزاز وقال: "أنا كده اطمنت عليك يا "هاني" وكده يبقي أنت حبيت شغلنا وواثق أنك حتخلي بالك من المصنع من بعدي"

احتضنت والدي بحب يشوبه الخوف، وقلت له:
"ربنا يخليك ليه يا بابا وما يحرمنيش منك"
ابتسم والدي وقال: "من بكرة حخلي عم "
فتحي" رئيس العمال ياخدك معاه ويعرفك
على كل حاجة في المصنع"
قلت لوالدي: " عمي "فؤاد" ممكن يعلمني"
أطرق والدي برأسه قليلًا، وكأنه يفكر في كلامي
ثم نظر إليَّ وقال: "عم "فتحي" ده دراعي
اليمين، بثق فيه ثقة عمياء وبعتمد عليه
في كل حاجة؛ لأنه أمين ومخلص وهو
إلى حيعلمك أصول الشغل الصح"
وبالفعل في اليوم التالي اصطحبني والدي معه
إلى مكتبه، وطلب أن يحضر "عم فتحي"
إلى مكتبه، كنت أعرف عم "فتحي" جيدًا،
رأيته كثيرًا طوال السنوات الماضية، فكان

أول شخص يأتي المصنع، وآخر شخص يغادره، كان رجلًا طيبًا قصير القامة، أشيب الشعر في أواخر الخمسينيات، لاحظت لأول مرة أن خبرة السنين قد حفرت بصماتها على قسمات وجهه الأسمر النحيل، دخل "فتحي" المكتب مبتسمًا ملقيًا التحية": صباح الخير عادل بيه"

رد والدي: "صباح النور عم فتحي"

قال فتحي: "قالوا لي أن حضرتك عايزني"

رد والدي: "أخبار الشغل إيه؟"

رد "فتحي بحماس: " كله تمام بحسك يا باشا إن شاء الله في طلبية جديدة حنتسلم النهاردة الساعة ٦"

رد والدي: "طيب الله ينور" ثم أكمل والدي "أنا كنت عايزك تاخد معاك "هاني" تعلمه

أصول الشغل، وتعرفه على العمال، وازاي يستلم ويسلم الطلبيات وازاي يراجع الشغل ويعتمده.

استدار عم فتحي ناحيتي مبتسمًا، وأشار بسبابته إلى عينيه: "من عينيه الاتنين الباشا الصغير في خلال كام شهر حيبقي أجدع مدير مصنع في البلد".

رد والدي: "أنا معتمد على ربنا وعليك وخلي بالك منه عشان أنت عارف حماس الشباب".

نظر "فتحي" إلى مداعبًا، وقال: " من النهاردة مافيش قعدة في المكتب يا "هاني" باشا، حننزل المصنع ونشتغل بإيدينا".

قاطعه والدي: "ما تقولوش "هاني" باشا اسمه "هاني" بس ده أد احفادك يا راجل يا عجوز" قهقه عم "فتحي" من دعابة والدي

واستدار ناحيتي وقال: "عجبك كده يا "هاني" أديك جبت لنا الكلام" ابتسمت وشعرت بالارتياح له فهي أول مرة تقريبًا نتحدث مع بعضنا البعض.

ارتسمت على ملامح والدي الجدية، وقال لفتحي: "عايز العمال ما يخافوش منه يا " فتحي" أو يحسوا أنه نازل عشان يراقبهم عايزهم يحبوه ويبقوا سنده وضهره".

هزَّ عم "فتحي" رأسه متفهمًا، وقال: "حاضر، إلى تامر بيه يا باشمهندس" ثم استدار عم "فتحي" تجاهي مادًّا يده إلى: " يالا يا "هاني" عشان عندنا شغل كتير النهاردة".

أمسكت بيده وخرجنا من المكتب، انطلقنا داخل أروقة المصنع أخذني في جولات في أقسام المصنع المختلفة، عرفني كل كبيرة

وصغيرة لم يبخل عليَّ بأيَّة معلومة، تعلمت منه الكثير والكثير، تفاجأت بعالم آخر جديد، كنت لا أعرف عنه شيء، عرفني على العمال وتخصصاتهم وطبيعة عمل كل فرد فيهم، وكيفية مراجعة الشغل من بعدهم، علمني كيفية تسليم وتسلم الطلبيات ومراجعتها وعدها وفحصها، كان عم "فتحي" يلازمني كظلي طوال فترة تواجدي في المصنع، أطلعني على كافة تفاصيل العمل، جعلني أقف على خط الإنتاج من أول مراحله، وحتى شكل المنتج النهائي والتأكد من مطابقته للمواصفات المطلوبة حتى تغليفه، كنت مستمتعًا بقضاء وقتي معه، توسع أفقي وعشقت التجارة والعمل، فأصبحت أنتظر

الإجازات بفارغ الصبر ليس من أجل قضاء الوقت في النادي أو اللعب مع أقراني كأيِّ مراهق في عمري، ولكنني كنت شغوفًا للذهاب إلى المصنع، حتى أنني أصبحت أستيقظ قبل والدي وأُوقِظُه مبكرًا ليوصلني إلى العمل.

أتذكر أنني في يوم دخلت غرفة نوم والدي لأوقظه: "بابا بابا الساعة بقت ٨ حنتاخر على الشغل".

وهنا استيقظت أمي فزعة: "يا ساتر يا رب في إيه يا بني؟".

قلت لها ضاحكًا من فزعها: "متأسف يا ماما قلقتك، بس لازم أصحِّي بابا عشان عندنا شغل مهم".

قالت متسائلة: "هي الساعة كام؟".

رددت "الساعة ٨ يا ماما".

اعتدلت في جلستها: "لسة بدري يا بني هو أنتم رايحين تبيعوا لبن وبعدين النهاردة الجمعة يعني المفروض المصنع إجازة".

قلت لها: "النهاردة في تسليم طلبية كبيرة صاحبها مستعجل عليها، وعايز أكون موجود من بدري".

قالت أمي: " طيب افطروا براحتكم وبعدين انزلوا، الشغل مش حيطير".

تثاءب أبي وتمطع، ويبدو أنه كان يستمتع بالحديث الدائر بيني وبين أمي ثم قال: "حاضر يا حبيبي ربع ساعة وحكون جاهز".

نظرت أمي إليه وقالت مداعبة: "حقيقي من شابه أباه فما ظلم، باباك برده تالت يوم جواز

سبني ونزل الشغل، ولما اعترضت قالي برده عندي تسليم طلبية".

ضحك والدي بصوت عالٍ، ونفض الغطاء عنه سريعًا وقال: "انتي لسة فاكرة ده انتي قلبك اسود أوي".

ضحكنا جميعًا، وقامت أمي باستسلام لتجهيز الفطور.

كنت طفلًا ذكيًّا وفَطِنًا، فاستطعت في وقت قياسي أن استوعب تفاصيل المهنة حتى أصبحت مثار فخر واعتزاز لوالدي، وجدت وسط العمال البسطاء الحب الحقيقي والاحتواء، كان والدي دائمًا يردد على مسامعي أن العمال في المصنع لا يعملون عندنا، ولكنهم يعتبرون شركاءً لنا في الإنتاج، ويجب علينا أن نعاملهم

كأفراد أسرتنا، نراعي ظروفهم الصحية والمادية؛ لأنه بفضل عرقهم ومجهودهم ما كنا نستطيع أن نصل إلى ما وصلنا إليه من بيت كبير وسيارة فارهة وعيشة كريمة.

سارت حياتنا هادئة وهانئة وسط دفء وحب والدي ووالدتي ورعايتهما لي ولأختي الصغيرة "إلهام" التي كانت تشبة والدتي كثيرًا في رقتها وجمالها الخلاب.

وعلى الرغم من سعادة والدي الكبيرة بي وبشغفي للعمل، فإنه أصر أن وقت الدراسة للدراسة، ووقت الإجازة للعمل، فكنت أتفرغ للمدرسة واستذكار دروسي حتى تفوقت دراسيًّا وعلميًا، والحقيقة أن عملي مع والدي لم يؤثر مطلقًا على تفوقي الدراسي، بل أضاف لي الكثير من

الخبرات، وأعطاني الحافز والقوة للنجاح، فأنهيت المرحلة الثانوية بتفوق، واخترت أن ألتحق بكلية الهندسة مثل والدي، وعلى التوازي تقدمت أيضًا في العمل في المصنع بخطوات ثابتة، وتعرفت على كل كبيرة وصغيرة تخص مصنع والدي، حتى إنه أصبح يعتمد عليَّ في كل شيء، ورغم اعتراض عمي "فؤاد" المتكرر وخوفه عليَّ من كِبَر حجم المسئوليات الملقاة على عاتقي، إلا أن والدي لم يُلقِ بالًا لاعتراضاته، ووضع ثقته الكاملة فيَّ، وأصرَّ على موقفه.

كنت قد بلغت سن الثامنة عشرة من عمري، وفي يوم لا يفارق ذاكرتي أبدًا، ولا يُمحى من عقلي، كنت منشغلًا ذلك اليوم بالعمل

في المصنع مع العمال؛ بسبب اقتراب العيد، وهو يعتبر موسم عمل لمن يعمل في هذا المجال، حيث ضغط العمل وزيادة الطلب على طلبيات الملابس وضرورة الانتهاء من كافة الالتزامات في الموعد المتفق عليه، كان الوقت متأخرًا عندما فرغت من عملي، كنت منهكًا ومُتعبًا، وبعدما تأكدتُ أن العمل يسير بانتظام، قررت أن أتجه إلى مكتب والدي لأستريح قليلًا ولأعلمه بآخر المستجدات، وما تم إنجازه اليوم من أعمال، طرقت الباب عدة طَرقات فلم أسمع ردًّا، فدخلت المكتب فوجدتُ والدِي جالسًا على كرسيه ورأسه مستندة على المكتب فوق ذراعه، شعرت بالشفقة عليه، فهو يجهد نفسه كثيرًا في العمل ويسهر

لوقت متأخر، ولا يأخذ قدرًا كافيًا من النوم، وبالتأكيد يحتاج إلى الراحة.

ناديت عليه: " بابا حضرتك نمت؟" وعندما لم أتلقَّ جوابًا، عرفت أنه مستغرق في نوم عميق من أثر الإجهاد والعمل الشاق، فاقتربت منه لأوقظه مُربتا على كتفه، لأُفَاجأ بوالدي الحبيب مطعونا بعدة طعنات في ظهرِهِ، رأيت قطرات دمائه الزكية تسيل على الأرض، توقف بي الزمن، شعرت أن جدران الغرفة تدور من حولي، والأرض تغوص تحت قدميَّ، صور أبي وذكرياتنا معًا منذ طفولتي تتصارع في عقلي، وتمُرُّ أمام عيني، نظرت حولي مُشَوَّشًا في أرجاء المكتب، لقد كان والدي يضحك معي هنا، وهنا

كان يثني عليَّ ، أما هنا فكان يحكي لي عن أحلامه وطموحاته، لقد كان يضحك معي من ساعات معدودة، وقفت أنظر إليه مذهولًا غير مصدق، من ذاك الشيطان الآتي من الجحيم الذي طاوعته يده وتحجَّر قلبُهُ وقَتَلَ والدِي بهذا المنظر؟

لماذا طعنه في ظهره بكل هذا الحقد والقسوة؟
يا إلهي، فالقاتل الخسيس لم يكتفِ بطعنة واحدة، بل سدد له عدة طعنات غادرة ونافذة، ألهذه الدرجة يحقد عليه ويكرهه؟!
تخيلت القاتل وهو يوجه السكين الحاد لظهر أبي فتخترق ضلوعه، وتنفذ إلى قلبه الطيب الطاهر الذي لم يعرف سوى الحب والعطاء، تخيلت الألم الذي شعر به، فاخترقت كل طعنة أعماق قلبي

فأدمته، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان عندي أمل أن أجد أبي، ما زال على قيد الحياة، اقتربت من والدي أكثر، ومددت يدي المرتعشة أهزُّه مناديًا إياه: "بابا بابا" ولكنني لم أتلقَّ رَدًّا من والدي.

رفعت يدي أمام عيني فوجدتها قد تخضبت بدماء أبي الطاهرة، فزعت صرخت فلم اتخيل يومًا أن تتلطخ يدي بدماء أبي، رجعت متخبطًا إلى الوراء بخطوات متعثرة، فسقطت على الأرض، ركضتُ في اتجاه الباب كالممسوس لا أعرف كيف نزلتُ من على الدَّرَج؟ وأخذت أصرخ في ساحة المصنع بانهيار تامٍّ "أبويا انقتل، أبويا اتقتل".

رأيت حالة من الهرج والمرج، رمى العمال ما في أيديهم وتدافعوا، الكل يجري نحو مكتب والدي، سمعت أحدهم يصرخ يطلب الاسعاف وآخر يطلب النجدة، أنزويت في ركن بعيد عن الجميع، انهرت على الأرض في حالة من اللا وعي وعدم التصديق، أخفيت وجهي بين يدي، فشممت رائحة دماء والدي في يدي، صرخت فَزِعًا:" لا لا "، ووضعت يدي تحتي أخفيها عن عيني وضممت ركبتي إلى صدري، فلقد شعرت بالقشعريرة والبرودة تسري في أوصالي فجأة، هل حقًّا مات والدي؟

لا، لا، إنها مجرد إصابة، ومن الممكن إنقاذه!

نعم، إنه مصاب، ستأتي الإسعاف الآن لتنقذه، وفي لحظات تذكرت والدتي وأختي "إلهام" التي لم تتعدَّ السبع سنوات، انهمرت دموعي شفقةً عليهم، وعلى حالي، كيف سأبلغ أمي بهذا الخبر؟ كيف سأعود للبيت بدون والدي؟

أفقت من ذهولي على يد تربت على كتفي، رفعت رأسي والدموع تنساب من عيني، لأجد أمامي عم فتحي يبكي بحُرقة، تحاملت على نفسي واستندت على الحائط، وقفت أمامه مترنحًا، ونظر إليَّ ولم ينطق بكلمة، ولكن نظرة عينيه قالت ما كنت أخشاه، جَذَبَنِي إلى صدره مواسيًا، استسلمت في أحضانه ليضمني

بقوة، أخذنا نبكي بحُرْقَةٍ على رجل عظيم لا يمكن أن يعوض.

وبعد وقت –لا أعرف كيف مضى–حاول عم "فتحي" السيطرة على حزنه فمسح دموعه،

وأمسك رأسي بقوة، ونظر في عينيَّ بثقة

وقال" لازم تتمالك نفسك يا هاني يا بني،

أنت دلوقتي بقيت راجل، لازم تسيطر

على نفسك عشان والدتك وأختك، همَّ

محتاجينك، همَّ دلوقتي مالهومش غيرك "

نظرت إليه والدموع تنهمر من عينيَّ لا إراديًّا،

فاحتضنني مرة أخرى، وأخذ يقبل رأسي

ويقول لي: "ما تخافش يا بني أنا جنبك

وفي ضهرك، ده أنا لحم كتافي من خير

والدك الله يرحمه"

ما إن سمعت كلمة الله يرحمه، حتى شعرت أنني
أتجرع ألم اليُتم كاسات وكاسات، لا مفر
من مواجه حقيقة أن والدي مات، وأصبح
ملتصقة باسمه كلمة (الله يرحمه)،
أحسست يومها أن ظهري قد انكسر،
وأنني فقدت العون والسند.
المؤلم في الأمر أن والدي لم يمت ميتة طبيعية،
بل غُدِرَ به من قبل شخص خسيس نذل
استغل ثقة والدي فيه، لم يكن لوالدي أي
أعداء، فكيف يكون له أعداء وكل من
يعرفه يحبه ويحترمه؟
لا يمكن أن يفكر في قتله سوى شخص وضيع
عديم الضمير، وبعد فترة من الوقت
حضرت الشرطة وسيارة الإسعاف، قام
رجال المباحث بسؤال كل المتواجدين في

المصنع وأفراد الأمن عن ملابسات الحادث، العمال أكدوا عدم دخول أو خروج غرباء من المصنع، إذن القاتل شخص بيننا يعمل معنا ويثق فيه والدي، وقتها أسفرت التحريات الأولية أن الهدف من القتل كان السرقة، واتُّهِمَ بمقتل والدي وقتها عامل يُدعى(حسين) يعمل في المصنع منذ فترة طويلة، إنني أعرف "حسين "جيدًا، كنت أقابله يوميًّا أثناء مروري على العمال، وأحيانًا كنا نتبادل أطراف الأحاديث الخاصة بسير العمل، كان "حسين" دائمًا بشوشًا في وجهي، كلما رآني يجري تجاهي ليُلقِي عليَّ التحية، ويدعو لي ولوالدي بالعمر المديد، حتى إنني استغربت تصرفاته وترحابه الشديد

لي، ففي يوم دفعني فضولي وسألت عم "فتحي" عن سر حفاوة "حسين" المبالغ فيها بي وبوالدي، فقلت لفتحي: "حسين" ده شكله غلبان وبحسه بيعز بابا أوي يا عم فتحي"

فنظر إليَّ وقتها "فتحي" بنظرة ذات مغزىً وقال مبتسمًا: "وازاي ما يحبش والدك، وهو وقف جنبه، وساعده يجوِّز بنته ويسد كل ديونه، والأكتر من كده والداك أنقذه من السجن!!"

فتعجبت من كلام "فتحي" وسألته: " أنقذه من السجن ازاي؟"

أتذكر وقتها أن عم "فتحي" ترك كوب الشاي من يده، واقترب مني وأخبرني بصوت خافت بعد أن أخذ مني عهدًا أن أبقي هذا الحديث سرًّا بيننا، ولا أبوح به لأحد، ولا

حتى لنفسي، وبالفعل وعدته، فأخبرني بأنه في يوم ضُبِطَ "حسين "يقوم بسرقة بعض قطع الملابس من المصنع، ويخبِّئُها ليبيعها لحسابه الخاص، وقتها ذهب "فتحي" وأخبر والدي بما رآه.

غضب والدي وأمر بإحضار "حسين" إلى مكتبه وجلس معه بحضور "فتحي" كان "حسين" يقف، وينظر إلى الأرض خَجِلًا من والدي، لم يستطع أن ينظر في عينيه، ولكنه في النهاية حكى لوالدي أنه ليس بسارق، وأنها أول مرة يمد يده ويخون الأمانة، ولكنها ظروفه القاسية نتيجة ديون زواج ابنته هي التي دفعته لذلك، فكان يمر بضائقة مالية كبيرة، وتراكمت عليه الديون والالتزامات، وأنه

معرَّض لدخول السجن إذا لم يلتزم بالسداد.

كان والدي حكيمًا في قراراته، وعندما سمع ظروف "حسين" الصعبة التي يمر بها، واستشف الصدق في كلامه رق قلبه، وتعاطف معه ورفض أن يطرده من عمله، ولم يكتفِ والدي بالعفو عن"حسين" ومسامحته، بل عرض عليه أن ياتي إليه ويطلب منه القطع التي يحتاجها دون الحاجة إلى سرقتها ويبيعها لحسابه، ويسدد ديونه والمبلغ المتبقي، ويسدد لوالدي ثمن البضاعة التي سياخذها.

وقتها لم يصدق" حسين" نفسه، فقد ظن أن والدي سيطلب له الشرطة، ويقضي سنوات من عمره في السجن، فاستدار والدي ناحية عم "فتحي" وقال له: "شوف "

حسين "حيحتاج بضاعة أد إيه واديها له ويسد براحته لما يبيع".

ارتمى "حسين" على يد والدي يقبلها ويبكي من الفرح حتى بلَّلت الدموع وجهه، وأخذ يدعو لوالدي بالعمر الطويل والستر في الدنيا والآخرة.

أفقت على صوت" إلهام "تقول لي بِوَهَن: "هاني هاني" هززت رأسي أطرد ذكرياتي المريرة، وقلت لها: "نعم يا حبيبتي".

قالت بضعف واضح وهي تحاول أن ترطب شفتيها بلسانها الجاف: "أنا عطشانة أوي". ضممتها بقوة إلى صدري، وقلت لها مواسيًا: "أنا مش حعرف أجيب لك مية يا حبيبتي"

سكتت "إلهام" قليلًا ثم هزَّت راسها باستسلام، وقالت لي: "خلاص ما تشغلش بالك أنا حقول لماما تجيب لي مية"

استدارت "إلهام "للخلف وقالت بصوت واضح وكأنها توجه كلامها لشخص معنا في القبر: "اسقيني يا ماما أنا عطشانة"

ارتجفت من كلامها، وأبعدتها عن صدري بسرعة، حاولت بلع ريقي الجاف بصعوبة، وقلت بتلعثم: " أنتي بتكلمي مين؟ ماما مش هنا يا إلهام"

سمعتها تضحك لأول مرة منذ دخلنا هذا المكان الملعون وتقول مؤكدة: "لا، ماما أهي قدامي أنت مش شايفها؟"

وأشارت بإصبعها على الفراغ، نظرت في اتجاه إصبعها فلم أرَ شيئًا، يبدو أن إلهام قد

مُسَّت أو لُبِسَت، ثم أكملت مبتسمة: "ماما كانت عايزاني أنام، وكانت بتغني لي أغنية نامي نامي يا عصفورة"

مدت "إلهام" يديها نحوي وأمسكت برأسي واقتربت بشفتيها من أذني، وقالت بصوت خافت: "هاني ماما بتقولك إنها حتخرجك من هنا"

هربت الدماء من عروقي فكلامها وطريقتها الغريبة ألقت الرعب في قلبي أكثر، ولكنني لم أن أنطق بكلمة، وأخذت أتلفَّت حولي بريبة وخوف، ثم أكملت "إلهام" حديثها الغريب وقالت: "ماما حفظتني دعاء وعايزاك تردده وراها"

لم أعد أتمالك أعصابي أكثر من ذلك، فكلامها ألقى الرعب والرجفة في قلبي، لم أشعر

بنفسي إلا وأنا أقبِضُ على كتفيها الصغيرين بقوة وأهزها بعنف، وانفجرت غاضبًا في وجهها كالبركان: "اسكتي بقي، اسكتي وبطلي كلامك ده، ماما مش هنا، أنا حقولك الحقيقة إلى كنت مخبيها عليكي، ماما ماتت، ماما ماتت، والأموات ما بيكلموش وما بيغنوش فهمتي"

أفقت على صوت نحيبها، وهي تضع يديها على أذنيها من الصدمة، وتصرخ بهستريا، وتقول: " أنت كداب، ماما ما ماتتش، ماما عايشة وبتغني لي أنت وحش وكداب"

أفلتُّ كتفيها النحيلتين من قبضتي، ونظرت إلى يدي اللتين تستحقان القطع في ذهول، يا إلهي ما الذي فعلته؟، ما ذنب هذه

المسكينة؟ لا أصدق أن قلبي طاوعني أن أقسوَ
عليها بهذا الشكل، وأعنفها بهذه الطريقة؟
ما الذنب الذي ارتكبته؟ أيُعقل أن يكون
كل ذنبها أنها تهون على نفسها ظلمة
القبر وتتذكر والدتها وتشتاق إليها؟ حتى
أنا أخوها الوحيد لم أرحمها وأرحم
ضعفها، أم أنني استكثرت عليها أن تأتي
أمي إليها في خيالها لتواسيها، وتخفف
عنها سكرات الموت؟

شعرت بتأنيب الضمير يقتلني وينهش قلبي،
مددت يدي إليها، فابتعدت عني خائفة.

قلت لها مطيبًا لخاطرها " تعالي يا حبيبتي في
حضني ما تخافيش" فاقتربت مني بخوف
وحذر فحملتها بين ذراعي وأجلستها على
ركبتي مرة أخرى وقَرَّبتها من صدري

وأخذت أهدئها وأربت على شعرها، وقلت لها "أنا آسف يا حبيبتي ما كنش قصدي أزعق لك وأقولك الكلام ده"

نظرت نحوي ومن وسط دموعها قالت "هي ماما ماتت ؟" اغتصبت ابتسامة وقلت لها "لا طبعا أنتي مجنونة، ماما عايشة مش هي بتغني لك وبتلعب معاكي" ثم أكملت "أنا حقولك على سر يا إلهام، أنا زعلت عشان ماما بتغني لك أنتي بس وأنا لا"

ابتسمت الصغيرة ببراءة ومسحت دموعها بظهر يدها ثم لفت ذراعيها الصغيرتين حول رقبتي مربتة على شعري فاقتربت من أذنها، وقلت مداعبًا"مش حتقولي لي الدعاء إلى ماما عايزاني اردده؟" هزت "إلهام" رأسها واعتدلت في جلستها على

ساقي، وقالت ببراءة طفولية رافعة يديها
الصغيرتين إلى الله: "قول اللهم أخرجني
من حولي وقوتي، وأدخلني في حولك
وقوتك، اللهم أخرجني من حولي وقوتي،
وأدخلني في حولك وقوتك"

انتفض قلبي عدة مرات عند سماعي هذا الدعاء،
فهذا بالفعل الدعاء الذي كانت تردده أمي
باستمرار عند الضيق، أيعقل أن تكون
أمي معنا هنا؟ أم أن "إلهام" سمعتها وهي
تدعو به فحفظته منها؟

وجدت "إلهام" تحثني وتقول: "يالا يا هاني ماما
بتقولك كلم ربنا هو الوحيد إلى حيسمعك"
وجدت نفسي أردد وراءها بدون وعي
دعاء أمي: "اللهم أخرجني من حولي
وقوتي وأدخلني في حولك وقوتك، اللهم

أخرجني من حولي وقوتي، وأدخلني في حولك وقوتك، اللهم أخرجني من حولي وقوتي، وأدخلني في حولك وقوتك".

أخذنا نردد كثيرًا هذا الدعاء حتى جَفَّ لساننا وأنهكنا التعب، تحاملت "إلهام" على تعبها وعطشها، وضمت كفيها الصغيرين واحتضنت ركبتيها واستكانت بهدوء كالقطة الصغيرة في أحضاني، يبدو أن المسكينة تشتاق لأمها وتتوهم خيالات بسبب قلة الهواء، ونقص الأكسجين الذي قارب النفاذ.

أنا أيضًا أشتاق لأمي بشدة، كم أفتقد لحضنها الدافئ الحنون، وحديثي معها الذي لا ينتهي، كانت أرقَّ وأطيب مخلوقة يمكن أن يقابلها إنسان، كانت تمتلك طاقة حب

وعطاء تكفي الكون كله وتفيض، تذكرت يوم حادثة مقتل والدي عندما دخلت عليها وملابسي ويدي ملطخة بالدماء، فنظرت إلى وضَرَبَت على صدرها بقوة، وصرخت "في ايه يا هاني؟ إيه الدم إلى مغرق هدومك ده؟

لم أستطع أن أجيبها، جذبتني من ذراعي، ونظرت إليَّ بهلع وسألتني: "عادل فين؟ أبوك جري له حاجة؟"

لم أنطق بكلمة، وعندما رأت أمي الدموع تنساب من عيني ألحت عليه: " في ايه يا بني أنت مخبي عني ايه؟"

خرجت الكلمات ثقيلة من لساني وأجهشت في البكاء: "بابا مات يا ماما"

دارت الدنيا بأمي لم تحتمل صدمة موت والدي سقطت على الأرض مغشيًّا عليها، جريت عليها أحاول أن أفيقها لكن بلا فائدة، اتصلت بالاسعاف التي جاءت مسرعة لتُقِلَّ أمي للمستشفي، وبعد مدة حضر عمي" فؤاد" ومعه عم" فتحي "إلى المستشفي فأخبرهما الطبيب أنها تعرضت لصدمة عصبية حادَّة، ولم تقوَ على احتمالها، ويجب أن تظل في المستشفي تحت الملاحظة لفترة.

وافق عمي واستدار ناحيتي وقال: " يالا يا "هاني "عشان نروح وجودك هنا مش حيفيد، وأنت لازم ترتاح النهاردة كان يوم صعب علينا كلنا"

كنت في حالة ذهول، فأفقت من ذهولي وقلت له: "إلهام أختي" إلهام" لوحدها في الفيلا"

ربت عمي على كتفي مهدئًا من روعي:

"ما تخافش يا" هاني" أنا روحت الفيلا وأخدتها ودتها عندي البيت عشان ما تحسش بحاجة، وتلعب مع ولاد عمها لحد ما مامتك تخرج بالسلامة"

ذهبت مع عمي إلى بيته لم يعرف النوم طريقه إلى جفوني في هذا اليوم، فبين ليلة وضحاها انقلب حالنا رأسا على عَقِب، وتدمرت أسرتنا الجميلة فمات والدي، والآن أمي ترقد في المستشفي بين الحياة والموت.

في صباح اليوم الثاني اصطحبني عمي للمشرحة، ذهبت معه ولكنني كنت أجُرُّ

قدمِي جَرًّا، فلم أتخيل أنني ذاهب لأرى والدي الحبيب بعد أن فارق الحياة، ذهبنا لاستخراج شهادة الوفاة، وإلقاء نظرة الوداع على والدي، ولكنهم أخبروا عمي أنهم مضطرين لإجراء تشريح للجثة لتحديد أسباب الوفاة، وأن ذلك سيستغرق بعض الوقت، انهار عمي عندما علم أن جسد أخيه سَيُشَرَّح، وكان رافضًا وظلَّ يصرخ بحرقة: "حرام عليكم تشرحوه وتبهدلوه، إكرام الميت دفنه"

أخبره الطبيب بحزم: " ده أمر النيابة، دي جريمة قتل ومش موتة طبيعية" وبعد جدل طويل وشد وجذب استسلم عمي في النهاية، وخرجنا من المشرحة وذهبنا مباشرة إلى المستشفي للاطمئنان على

والدتي، فأخبرنا الطبيب بأنها تستجيب للعلاج وحالتها تتحسن ولكن ببطء، وأنها تحت تاثير المهدئ، ولن تتحمل أي إزعاج أو زيارة، خرجنا من المستشفي فأوصلني عمي لمنزله؛ لكي أكون بجانب أختي الصغيرة، وذهب هو إلى المصنع ليعطي العمال والموظفين إجازة لمدة ثلاثة أيام حتى نعيد ترتيب الأمور.

في ذلك الوقت كان عمي يعاملني أنا وأختي كأبنائه، فأغدق علينا من اهتمامه وحنانه، كان أبناء عمي متقربين إلينا في العمر، "فزياد" يصغرني بعامين، "وريم" تكبر "إلهام" بثلاث سنوات، أمضينا في منزله عدة أيام، وفي اليوم الثالث أخبرني عمي أنهم انتهوا من تشريح جثة والدي، وأننا

يجب أن نذهب لأنها إجراءات الدفن، وبعد استخرج تصريح الدفن أخذني عمي من يدي لألقي نظرة الوداع على والدي، قبل أن يواري جسده الطاهر التراب، أشار عمي على غرفة، فأجفلت عندما قرأت على بابها كلمة المشرحة.

فتح الباب فلمحت جسد أبي ممدًا على سرير معدني في منتصف الغرفة ومغطًّى بالكامل بغطاء أبيض، تقدمت نحوه بأقدام مرتعشة، وبعد عدة خطوات خذلتني قدمي وشعرت أنني أسقط أرضًا، فأمسك بي عمي من تحت ذراعي، وتقدم معي نحو جسد والدي، وهناك أزاح عمي الغطاء عن وجه أبي، لم يتحمل، فأشاح بوجهه بعيدًا يغالب دموعه، أما أنا فكنت أنظر

بذهول وعدم اكتفاء لوجه والدي الحبيب، كنت أريد أن أشبع منه أن أملأ ذاكرتي بملامحه، كان يبدو أمامي كأنه نائمًا، ملامحه الطيبة هادئة ومطمئنة، وعلي وجه نفس ابتسامتة الراضية، لم أصدق أنها ستكون المرة الأخيرة التي ستراه عيناي، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتمي على صدره.

احضنته وقبلته بلهفة واشتياق، آاااهٍ يا أبي كم اشتقت لحضنك كثيرًا، اشتقت لالتفاف ذِرَاعَيْكَ حول كَتِفِي، اشتقتُ لرائِحَتِكَ العَطِرَة التي أتنفسها كلما ضممتني إلى صدرك، وقتها ذرفت كل الدموع التي حبستها طوال الثلاثة أيام الماضية، جذبني عمي من ذراعي واحتضنني بقوة،

لففت ذراعي حوله، فحضنه يذكرني برائحة وحضن أبي، حاولت بعدها تمالك أعصابي، وبدأنا ترتيب إجراءات الدفن والصلاة ودفن والدي الحنون، وقتها شعرت وكأنهم دفنوا جزءًا من روحي معه، تركني والدي وحيدًا وأنا في أشد الاحتياج إليه، حتى أمي المسكينة حرمت من وداعه الوداع الأخير، كان الله في عونها فهي ترقد في المستشفي فاقدة الوعي رافضة أن تفيق حتى لا تصطدم بالواقع المرير.

لقد كان والدي بالنسبة لأمي الهواء الذي تتنفسه، هو القلب النابض بداخلها، أتذكر في لحظة صفاء، حكى لي والدي، وهو سعيد إحدى ذكرياته مع أمي ومدى حبها

له، فقال لي مبتسما كالأطفال بأنه وأمي تربطهما صلة قرابة فهو ابن عمها، وأن أمي أحبته حبًّا جمًّا في صمت، وتعلقت به منذ طفولتهما، وكان والدي أيضًا يبادلها نفس المشاعر، ولكنه كان خجولًا وحَذِرًا في إظهار مشاعرِه فاحتفظ بحبها سِرًّا، ولم يبح لها، وعندما وصلوا لمرحلة المراهقة وكبرت والدتي أصبحت ذات جمال خلاب يخطف الألباب، فبدأ العرسان يتهافتون لطلب يدها، حتى إن عمي "فؤاد" كان من ضمن من تقدموا لخطبتها، ولكنها صارحت عمي بشجاعة عن حبها لأبي فشعر عمي بالحزن والاكتئاب في البداية لفترة من الوقت، ولكنه ما لبث أن تقبل الأمر وحكى

لوالدي عن حب والدتي ومشاعرها تجاهه وشجعه على سرعة الارتباط بها، وتمنى لهما السعادة والهناء، وعندما شعر أبي أن أمي ستضيع من يديه بسبب صمته، وتأكد أنها تبادله نفس المشاعر، تشجع وأخبر العائلة برغبته في الزواج منها بعد تخرجه، باركت أسرتهاما هذا الزواج، وعندما تخرج والدي من كلية الهندسة قسم ميكانيكا، وأنهى خدمته العسكرية، تقدم بشكل رسمي لعمه الذي رحب به؛ لأنه كان مقربًا إلى قلبه، ويعتبره في منزلة ابنه، ولذلك لم يثقل عليه في الطلبات والمهر والشبكة، وتمت خطبة والدي ووالدتي في أضيق الحدود.

ويبدو أن قدم أمي كان قدم الخير عليه، فبعد
خطبتهما بفترة وجيزة جاءت أمام والدي
فرصة العمر، أن يشتري مصنع للملابس
كان عرضه عليه الحاج "رشاد" وهو
قريبهم من بعيد، وكان الحاج رشاد قد
تعرض لأزمة مالية كبيرة، وعندما تعمقت
خسائره، أشهر إفلاسه وعرض المصنع
للبيع بنصف ثمنه، كانت تعتبر صفقة
العمر لوالدي، فرصة ذهبية ليحقق
أحلامه وطموحاته الكبيرة، وقتها هُرِع
والدي إلى والده، وأخوه "فؤاد" وعرض
عليهما أن يشاركوه بأي مبلغ مالي لشراء
المصنع، ويكونوا شركاء معه، ولكنهم
رفضوا عرضه بشكل قاطع، وقال له
عمي حرفيًّا: "إذا كان الحاج "رشاد"

بجلالة قدره ما عرفش يدير المصنع وأشهر إفلاسه، أنت هتعرف؟ عيش عيشة أهلك يا عادل، وبلاش تبص لفوق، عشان إلى بيبص لفوق بيتعب"

سخر الجميع من والدي ومن طموحه الزائد الذي فاق توقعاتهم، فكان أقصى أمانيهم أن يعمل موظف في أي شركة حكومية؛ لأنهم مؤمنين بمقولة (إن فاتك الميري اتمرمغ في ترابه)، أما والدي رفض أن يتمرمغ في ترابه، وأن يدفن أفكاره وأحلامه في وظيفة حكومية روتينية، وبعد عدة محأولات يئس والدي من إقناع والده وأخيه الذين انصرفوا عنه وخذلوه، كانت أمي هي الوحيدة التي آمنت به وبقدراته وبطموحه الكبير، حاول والدي بكل

الطرق تجميع مبلغ المقدم الذي طلبه الحاج رشاد، فطرق كل الأبواب بلا جدوى، وعندما فقد الأمل في تدبير المال اتصل بالحاج "رشاد" واعتذر له وأبلغه بعزوفه عن شراء المصنع، ولكنه تفاجأ برد الحاج "رشاد": " ازاي يا عادل يا ابني أنت مش بعت لي العربون مع "منال" "خطيبتك، وأنا بعت معها العقد ومش باقي غير على إمضتك؟!"

سكت والدي، فهو لم يفهم شيئًا، ولكن الحاج "رشاد" فهم فقال له: "ربنا يبارك لك يا ابني في خطيبتك بنت أصول بصحيح"

أغلق والدي الهاتف مع الحاج "رشاد" غير مصدق، وهُرِع إلى منزل عمه ليجد والدتي في انتظاره، وكانت قد أعدَّت له

مفاجأة أخرجت له عقد بيع المصنع الذي حلم به
كثيرًا، نظر إليها والدي، وإلى العقد في
يدها غير مصدق وسألها: "بس اتصرفتي
ازاي في المبلغ ده كله؟"
ابتسمت والدتي بخجل وقالت له "بعت ذهبي
وشبكتي وبابا كان عطيني نصيبي من
ميراث ماما، وربنا قدرني وجمعت
العربون"
تفاجأ والدي وقال: "عملتي كل ده عشأني؟
"فقالت له والدتي: "عمري كله ما يغلاش عليك".
قَبَّلَ أبي يدَ أُمِّي بِحُب وامتنان، وقال لها: "أوعدك
أعوضك عن كل قرش دفعتيه، جميلك ده
دين في رقبتي طول العمر".
انغمس بعدها والدي في العمل حتى يكمل باقي
ثمن المصنع، ويثبت للجميع أنه كان

على صواب، فكان يصِلُ الليل بالنهار، ويجهز ترتيبات زواجه من والدتي في نفس الوقت.

بعد أسبوعين اصطحبني عمي "فؤاد" للمستشفي، وقتها صرح الطبيب بخروج والدتي من المستشفي على أن تكمل باقي العلاج في البيت، وشَدَّد الطبيب على ضرورة ألا تتعرض لأي ضغط نفسي أو عصبي، فَرِحت عندما علمت أن أمي أخيرًا ستخرج وتملأ بيتنا ضحكًا وحُبًّا مرة أخرى بعد أن سيطر عليه الحزن والسواد، كما أن "إلهام" تفتقدها كثيرًا وتسأل عنها باستمرار، فاضطررت أن أخبر "إلهام" أن والدَيْنا سافرا لزيارة أحد أقاربنا في البلد وسيعودان قريبًا، فهي طفلة صغيرة لن

تتحمل فكرة أنها أصبحت يتيمة الأب وأمها تَرْقُد
مريضة في المستشفى.
دخلتُ مُتَلَهِّفًا خَلْفَ عمي "فؤاد" إلى حجرة أمي
في المستشفي، كم كنت مشتاقا لها
ومتحمسًا لأحمل حقيبة ملابسها
وأصطحبها لمنزلنا، ولكنني فوجئت بها
جالسة على كرسي متحرك، تجمدت
الابتسامة على شفتَيْ عندما رأيتها، ناديتُ
عليها "ماما ماما" لم تَلْتَفِت إليَّ، كانت
تنظر أمامها وعيناها مثبتتان على سقف
الغرفة، نادَيْتُها ثانية: "ماما" لا جدوى
وكأنها لا تسمعني، التفتُّ إلى الطبيب
متسائلًا "هي مش سامعاني؟" اقترب مني
الطبيب وسحبني من ذِرَاعِي برفقٍ بعيدًا
عنها، وأشار لعمي أن يقترب مِنَّا، وقال

لي بصوت خافت: "والدتك الصدمة كانت فوق احتمالها، اللي هي فيه ده من أثر الصدمة بس مع العلاج والرعاية ممكن تقدر تمشي تاني"

بَهَتُّ ورَدَّدتُ خلفه بلا وعي: "تقدر تمشي تاني! يعني إيه؟ "

أطرق الطبيب برأسه ثم قال: "الجلطة سببت لها شلل في نص جسمها اليمين، وفقدت القدرة على الكلام"

نظرتُ خلفي إلى والدتي في ذهول وصدمة، وكانت المسكينة جالسة تحملق في السقف تَهُزُّ رأسها باستمرار، وكأنها في عالم آخر مع اشخاص آخرين، لا تشعر حتى بوجودنا معها في الغرفة.

أكمل الطبيب مُطَمْئِنًا: "احنا خلال الأسبوع إلى
فات دَوِّبْنا الجلطة، مع الوقت صدقني
حتتحسن، بس بلاش تتعرض لأي حاجه
تزعلها ولو بسيطة، وإلا حيبقي في خطر
على حياتها"

قاومت دموعي بصعوبة، فَرَبَتَ الطبيبُ وعمي
على كتفي، وأكمل الطبيب حديثَهُ" أنت
عليك دلوقتي مسئولية كبيرة يا "هاني"،
ولو حابب عندنا هنا فريق تمريض مدرب
على أعلى مستوى ممكن أرشح لك
ممرضة ترافق والدتك في البيت لمتابعة
العلاج معها، وعمل علاج طبيعي لها"

هززت رأسي بالموافقة، واستدار عمي للطبيب
وقال:"أنا حكلمك النهاردة يا دكتور وأرتِّب
معاك موضوع الممرضة"

استدرت في اتجاه أمي واقتربت من كرسيها المتحرك وركعت على ركبتي بجانبها أُقَبِّلُ يديها والألم والدموع تعتصر قلبي، لم تنظر إليَّ أو تشعر بوجودي فوقفت بهدوء وأمسكتُ مقبضَيِ الكرسي ودفعت بكرسيها أمامي متجهين إلى منزلنا.

انخلع قلبي عندما سمعت صوت خطوات تدب فوق القبر الذي نحن محبوسين داخله، انتفضت من مكاني وتجدد بداخلي الأمل في النجاة، سألت "إلهام" بفرح: "انتي سامعة يا إلهام في صوت ناس صح؟ أنا مش بيتهيألي صح؟"

أنصتت إلهام بانتباه تستمع للأصوات فوقنا، ثم ردَّت بضعف وإعياء واضِحَين، وقطرات العرق تتصب من جبينها فتبلَّلَ قميصي:

"آه، أزحت إلهام عن ركبتي وأجلستها على
الأرض، فقررت أن أتركها وحيدة وأرحل،
وأخذت تتشبث بذراعي بكلتا يديها،
وتتوسل إلي وتنتحب: "ماتسبنيش يا
هاني، والنبي ما تسبنيش هنا".
ولكنني قلت لها: "ما تخافيش أنا جاي لك تاني"
حاولت أن تتشبث بذراعي مرة أخرى، ولكنني
أفلتُّ منها بسرعة، سمعت صرخاتها
الفزعة من الإعياء، سمعتها تبكي بوهن
وتنادي عليَّ، المسكينة تملكها الفزع
فاحتضنت ركبتيها بدلًا من صدري،
أخذت أزحف على يدي وركبتي غير
عابئ بالجثث والأشلاء التي أتعثر فيها،
تحسَّستُ طريقي إلى سلم القبر، وزحفت
فوقه وأخذت أصرخ بأعلي صوت،

وأضرب باب المقبرة بقوة بكلتا يديَّ، ويبدو أن صراخي ألقي الرعب في قلب الصغيرة، فأخذت تصرخ هي الأخرى بأعلي صوت، سمعت أصوات الخطوات تقترب من باب القبر وتقف، فزادت قوتي في رطم وركل الباب.

أخذت أصرخ: "أنا عايش أنا وأختي خرجونا" تعالَتْ أصوات الناس في الخارج وتجمعهم حول القبر، فأخذت أضرب باب القبر بقوة أكبر وأصرخ: "خرجوني أنا وأختي عايشين احنا هنا مدفونين في القبر".

سمعت أصوات خطوات تجري مسرعة مبتعدة حتى اختفت تمامًا، وهنا توقفت عن الصراخ وانهرت على سلم القبر، يبدو أن

الأشخاص في الخارج قد أصابهم الرعب، وظنوا أننا أشباح القبور تناديهم، وما هي إلا دقائق معدودة مرت كالدهر حتى سمعت صوت الخطوات تقترب منا مرة أخرى، فأخذت أصرخ بقوة أكثر من المرة السابقة.

أخذت أرطم جوانب وباب القبر، سمعت صوتًا يقترب ويقول: " تعالوا الصوت جاي من هنا" دَبَّت الحياة في عروقي مرة أخرى بعد أن فقدت الأمل، ظللت أصرخ وأنادي، سمعت أدوات حفر وفؤوس تضرب باب القبر، بعد عدة ضربات متلاحقة رأيت أخيرًا شعاعَ الشمسِ لأوَّلِ مرة منذ عدة أيام.

شعرت بأعداد الناس تتجمع وتتزايد، استمرَّ
الحفر حتى تهدَّم باب القبر اللعين نهائيًّ،
أعماني ضوء الشمس، فلم أستطع أن
أفتح عيناَي، كنتُ خائر القوى، ومنهارًا
على درجات السلم.

في البداية، نظر الناس إلىَّ ولم يقترب مني
أحد، فكلهم أصابهم الذعر، وانتابهم
الخوف مني، كنت شبه فاقد للوعي،
ولكنني كنت أسمع أصواتهم آتية من
مكان بعيد، وهم يرددون "لا اله الا الله،
الدنيا جري فيها، الناس ما بقاش في
قلوبها رحمة " في النهاية تجرأ رجل
منهم، ونزل القبر ثم حملني على كتفه
وأخرجني منه، مدَّدَنِي على الأرض،
سكبوا الماء البارد على وجهي، فبدأت

أسترد وعيي تدريجيًّا، أحضروا لِيَ الماءَ لأشرب، ولكنني رفضت وأشرت للشخص الذي اخرجني بوهن ناحية القبر وقلت له: " أختي أختي الصغيرة "إلهام" لسة جوة بس هي خايفة "

هُرِع التُّرَبِيُّ داخل المقبرة مرة أخرى ليحضر جوهرتي الغالية، فهي آخر ما أملك في هذه الحياة، ظلَّت عيناي معلقة بباب القبر حتى رايته يخرج حاملًا صغيرتي الحبيبة بين ذراعيه، وهنا ولأول مرة تنفست الصعداء، دبت الحياة في عروقي مرة أخرى، مددت ذراعي عاليًا إليها أتلقفها منه، فاقترب مني ومددها بجانبي على الأرض ثم ابتعد خطوتين إلى الوراء، ابتسمت له شاكرًا واقتربت منها

زاحفًا مستندًا على كُوعِي أنظر إليها بلهفة، كان شعرها المبلَّل من العرق يغطي وجهها الجميل، فأزحت خصلات الشعر عن جبينها، لأجد عيناها قد جحظتا للخارج وفمها مفتوح على آخره كانت علامات الذعر والفزع مرتسمة على قسماتها.

نظرت للناسِ حولي وقلت لهم متسائلًا: " في ايه؟ هي نايمة صح؟ "

لم يجبني أحد، كانوا جميعهم منكسي الرأس، بدا الخوف يتسرب إلى قلبي أخذت أهزُّها مرة واثنين، قلتُ لها: "إلهام، ماما طلعتنا زي ما قلتِ لي"

لم تجيبني، قلت لها: " بطلي مقالبك دي يا لومي أنا عارف حركاتك يا شقية"

لم تجبني، وضعت أذني على صدرها اسمع نبضات قلبها فلم أسمع شيئًا، كَذَّبتُ أذني فلم أصدق أن قلبها الصغير لم يتحمل الرعب الذي عاشته فقرر أن يتوقف فجأة، قلت لها: "قومي قومي يا حبيبتي يالا عشان نروح بيتنا"

جذبتها من ذراعيها أخذت أهُزُّهَا بقوة صارخًا: "ما بترديش عليَّا ليه؟" لكنها لم تتحرك أو تجيبني.

سمعت شخصًا يضرب كفًا على كف ويقول: "لا حول ولا قوة الا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون" اقترب شخصان منها، وحاولا إفلاتها من بين ذراعَيَّ، فصرختُ فيهما: "ابعدوا إيديكم القذرة عنها يا مجرمين"، قبضت بكلتا يديَّ على التراب الموجود

حولي على الأرض، وأخذت أقذفه عليهما محاولا إبعادهما عن صغيرتي: "ابعدوا عننا، كفاية سيبونا في حالنا، ابعدوا"

رأيتهم من حولي يبكون ويتراجعون للخلف في استسلام، حملت صغيرتي الفزعة بين ذِرَاعَيَّ، كان جسدها الصغير مرتخيًا، ورأسها متهدلًا للخلف وأجلستها على ركبتي، كما كنت أُجلِسُها طوال الأيام السابقة، ونحن في القبر.

ضممتها إلى صدري بقوة، ثم أخذت أمسح على شعرها الجميل الناعم، قربت فمي من أذنها أحدثها بهمس كالمجذوب: "هو انتي زعلتي مني يا حبيبتي عشان بعدتك عن حضني، هو أنتي افتكرتيني حسيبك؟ ها؟ أنا ما كنتش حسيبك، ده أنا كنت

بنادي على الناس عشان يخرجونا"، ثم أكملت معاتبًا: "شوفتي ازاي إنك انتي إلى سبتيني، مش انتي قلتِ لي إن ماما حتخرجني، طيب ما خرجتكيش معايا ليه؟"

لم ترد عليَّ، تأملت وجهها الفزِعَ وكأنني أحفر صورته في ذاكرتي لآخر مرة، تركت أناملي تتخلل شعرها الجميل الذي تحول لونه من الأسود الحالك إلى اللون الأبيض بسبب الأهوال التي عاشتها، قلت لها مُقسِمًا بخصلات شعرها ودموعي تبلل جبينها: "وحياة كل شعرة في راسك يا إلهام، وحياة كل دمعة نزلت من عينيكي، وحياة الرعب إلى شفتيه لأنتقم من إلى

عمل فيكي كده، وغلاوتك عندي لاخليه يتمني الموت وما يطولهوش".

ضممتها لصدري بقوة لآخر مرة، ثم قبلتها على جبينها وأغمضت عينيها، أرحتها على الأرض برفقٍ، ثم خلعت قميصي وغطيتها به مربتا على صدرها، استريحي يا صغيرتي، استريحي؛ فظلمة القبر أرحم بكثير من ظلمة قلوب البشر، وقفت بعدم اتزان أنظر حولي مُشَوَّشًا باحثًا عن مكان أخرج منه.

حاول الناس إثنائي عن الرحيل، وأنا على هذه الحالة المزرية، وحَثُّونِي أن أنتظر حضور الشرطة، ولكنني لم أستمع لهم، وأخذت أسير مترنحًا يمينًا ويسارًا كالسّكارى، كنت أسير خطوتين وأقع على الأرض، ولكنني

كنت أتحامل على نفسي لأقف وأواصل السير،
كان كل هدفي أن أهرب من هذا المكان
قبل وصول الشرطة.
أخيرًا وصلتُ لباب المقابر فخرجت منه ولكنني
توقفت والتفتُّ إليه مرة أخرى، فلقد تركت
بداخله قطعة من قلبي وروحي، فلم أعد
أنا "هاني" المهندس الثري صاحب
الأملاك خرجت شخصًا آخر مشردًا
ذليلًا، سرتُ في الشوارع هائمًا على
وجهي، لا أعرف وجهتي، كنت في حالة
من التشويش وعدم الوعي، كنت غير
قادر على تذكر أي شخص يمكن أن ألجا
إليه، ليس معي مال أو هاتف، كان المارَّة
يمرون بجانبي ينظرون إلى بذعر ويفرُّون
بعيدًا عني، رأيت انعكاس صورتي في

زجاج أحد المحلات ففزعت من شكلى؛ كنت مخيفًا بشع المنظر، اختفت وسامتى وشبابى فجأة، لم أتعرف على نفسى؛ فقد فقدت أغلب شعرى والباقى منه تحول لونه للأبيض وجحظت عيناى وبرزت عظام جمجمتى فكنت أشبه بالهيكل العظمى، شعرت أننى أقرب للأموات من الأحياء. سرت أياما وليالى غير مدرك لما حولى من مكان أو زمن، اتسخت ملابسى وتقطعت على جسدى، افترشت الأرصفة وجعلت حذائى وسادتى، كانت صورة إلهام وصرخاتها تطاردنى فى أحلامى فأستيقظ مجفلًا، فقدت الإحساس بكل شيء حتى باحتياجاتى الأساسية حتى إننى ظللت أتبول وأتبرز فى سروالى

لأيام دون أن أشعر، كنت أسمع الناس ينعتوننى بالمجنون، والأطفال تجرى ورائى وتقذفنى بالحجارة ويجرون بعيدًا ثم يضحكون عاليا لم أُبالِ أو أشعر بألم جروحى، فألم قلبى طغى على ألم جسدى، لم أذق طعم الأكل أيامًا وأيامًا. فى يوم وقفت أمام أحد المطاعم الشهيرة التى أعرفها جيدًا، فقد كنت من أفضل زبائنهم، اقتربت من الباب وأخذت أنظر لصور الأكل الشهى، فتقزز أحد الزبائن من مظهرى المتسخ فأشار للعمال فى المطعم، فخرج العمال يحثوننى على الرحيل وينهروننى، واقترب عامل منهم ولكزنى بقسوة فى صدرى لأسقط على ظهرى متألمًا، وهنا تذكرت عندما كنت أصطحب أمى وأختى لهذا

المطعم وكان المدير عندما يرانا يهب من مكانه ليفتح الباب لى بنفسه ملاحقًا إياى بكلمات الود والترحيب، أما الزبون فنظر للعمال بنظرات الشكر والثناء والوعد بالمزيد من البقشيش، أما باقى الزبائن فلم يكلفوا أنفسهم أن يلقوا لى فضلات طعامهم من باب الرحمة والإنسانية وفضلوا أن يلقوها للقطط والكلاب، وبعد عدة محاولات يائسة للحصول على الطعام، نظرت حولى فوجدت مجموعة من الكلاب الضالة تتجمع حول أكياس من القمامة تنبشها باحثة عن غذائها، وقتها كان الجوع قد تملَّك منى، فجريت ناحيتهم أُزاحم الكلاب الضالة على أكياس القمامة، فأخذت أمزق أكياس القمامة

بيدى وأسنأنى وأبحث بداخلها بجنون عن أى لقمة تسد جوعى، والحقيقة أن الكلاب كانت أكثر رحمة من البشر فنظر بعضهم إلى بعض باتفاق ضمنى ثم أفسحوا لى المجال لكى آكل قبلهم وأسُدَّ جوعى، وجدت بعض كسرات الخبز العفنة فكنت أزيح طبقات العفن من فوقها وأتناولها متذكرًا رائحة طهى أمى الشهى.

فى يوم كنت جالسًا على الرصيف أراقب المارَّة، كنت أراهم أشباحًا تمر من أمامى، ثم لفت نظرى أن وقفت أمامى سيارة سوداء فارهة، ونزلت منها سيدة فى الأربعين من عمرها ودخلت السوبر ماركت لشراء مستلزماتها، كانت هذه السيدة قريبة الشبه من والدتى، كان لها نفس ابتسامتها ونفس

نظرتها الحانية، لم أستطع أن أحول نظرى عنها، وقفت كالمنوَّم تنويمًا مغناطيسيًّا أمام باب السوبر ماركت أنتظر خروجها بفارغ الصبر، وبعد ربع ساعة تقريبًا ظهرت من جديد هذه السيدة ومن خلفها شخص يحمل عنها الأكياس لوضعها فى سيارتها، وجدت شيئًا خفيًّا يجذبنى ناحيتها وبدون وعى اقتربت منها، وعندما رآنى الرجل الذى يسير خلفها دفعنى فى صدرى قائلا: "ما تشوفوا لكم شغلانة تشتغلوها بدل الشحاتة دى" نظرت السيدة نحوى وابتسمت ثم توقفت ومدت يدها فى حقيبتها وأخرجت مبلغًا وقدَّمته لى، لم أنظر للمبلغ أو أمد يدى لأخذه منها، فكنت مسمِّرًا نظراتى على وجهها

الملائكى الذى يشبه والدتى، أثناها الرجل "سيبك منه يا هانم ده مجذوب" أكملتْ سيرها فى اتجاه سيارتها، سرتُ خلفها مخدَّرا، رأيتها تلتفت للخلف مرة أخرى وتلقى نظرة أخيرة علىَّ، فتح الرجل شنطة السيارة ووضع الأكياس، ثم ركبتْ سيارتها ورحلت، استدار إلىَّ الرجل الذى كان برفقتها ونكزنى فى كتفى بقوة وقال "عيل فقرى بصحيح حد يرفض ٢٠٠ جنيه؟!" ودخل المحل ضاحكًا ضاربًا كفًّا على كف.

جلستُ مرة أخرى على الرصيف وشردتُ بذهنى أتذكر والدتى. بعدما خرجنا من المستشفى أوصلَنا عمى "فؤاد" للفيلا، وعندما دخلنا حديقة بيتنا لاحظت أن أزهار التوليب الخاصة بأمى قد ذبلت جميعها وماتت،

رأيت نظرات الحزن فى عينى أمى فقلت لها "بكرة أجيب لك بذور جديدة ونزرعها مع بعض إن شاء الله" لم تردَّ أمى وكأنها فجأة قد فقدت شغفها بالزهور والنباتات. دخلنا إلى الفيلا فجذبنى عمى خارجا بعيدًا عن والدتى وقال لى "أنا شايف تخلى "إلهام" عندى فى البيت تلعب مع "ريم" لحد ما "منال" تتحسن وتسترد صحتها" قلت له "لا يا عمى مش حينفع "إلهام" تقعد لوحدها وأكيد وجودها حيفرق مع ماما" هزَّ عمى رأسه متفهمًا وقال "طيب أنا حروح البيت دلوقتى أجيبها وأجيلك" شكرت عمى كثيرًا وقلت له "احنا تعبناك معانا أوى يا عمى، لولا وجودك معانا مش عارف كنا حنعمل إيه" ابتسم عمى

وربت على كتفى قائلا "أنتم لحمى ودمى يا "هاني" أنتم ولاد أخويا الصغير الله يرحمه".

انصرف عمى ودخلت المنزل أطمئن على والدتى فوجدتها فى نفس الحالة ولكنها كانت تحاول أن تتلفت حولها وكأنها تبحث عن شخص ما، فاقتربتُ منها "عايزة حاجة يا أمى؟" حاولت أن تنطق اسم "إلهام" لكن بصعوبة، ابتسمتُ لها بفرح واقتربت منها ممسكًا يديها: "عايزة "إلهام" يا ماما؟" أشارت برأسها موافقة، ارتميت على يديها أقبلها وأقبل رأسها: "عمى "فؤاد" حيجبها دلوقتي" أشاحت بوجهها غضبا وأخذت تزمجر بأصوات غير مفهومة وأخذت تهز كرسيها بعصبية، حاولت أن تقوم من

كرسيها المتحرك، لم أفهم ما الذى أغضبها فجأة!
كانت تريد أن تقول لى أشياء وأشياء،
ولكنى لم أفهمها، جريتُ ناحيتها أُثنيها
عن تركها لكرسيها، خفت عليها أن تسقط
أرضا، حاولت تهدئتها "أرجوكِ يا أمى
اهدى" انهرت تحت قدميها أقبلهما
"أرجوكى يا أمى اهدى أنا "وإلهام" ما
لناش حد غيرك دلوقتى" رأيت دموعها
تنساب من عينيها، وبصعوبة مدَّت يدها
اليسرى ومسحتْ على شعرى، غلبت
دموعى ابتسامتى فارتميتُ فى أحضانها
"يااال يا أمى لو تعرفى محتاج لحضنك
ده أد إيه" مر الوقت وأنا مُرتمٍ فى
أحضان أمى أرتوى من حنانها الذى
حرمت منه طويلًا، وبعد مرور ساعة

تقريبًا دق جرس الباب فهرعت فى اتجاه الباب لأفتحه، ما إن فتحتُه حتى اندفعتْ منه "إلهام" جارية فى اتجاه أمى مادَّة ذراعيها عاليا قائلة "ماما جات ماما جات" وقفت "إلهام" مسمرة أمام كرسى أمى المتحرك ثم قالت لأمى "مش حتشلينى وتبوسينى يا ماما؟" انسابت دموع أمى فى صمت، فاقتربتُ من "إلهام" وحملتها من الخلف وأجلستها على ركبتى أمى وقلت لها "ماما إديها وجعاها يا "إلهام" مش حتقدر تشيلك" فابتسمت الصغيرة ولفَّت ذراعيها حول رقبة أمها واحتضنتها بشوق، وقالت "سلامتك يا ماما". رأيت شوق أمى المتبادل لها، وهنا تدخل عمى الذى كان يقف بجانب الباب يراقب ما يحدث فى

صمت، وقال لأمى" محتاجة حاجة يا منال؟"

فأشاحت بوجهها بعيدًا عنه، شعر عمى بالخجل من رد فعل أمى العنيف واستدار ناحيتى قائلًا "لو احتجت حاجة يا "هانى" كلمني" ثم أكمل "وأنا كلمت الدكتور "حمدي" واتفقت معاه حيبعت الممرضة بكرة الصبح" هززت رأسى ممتنًّا، استدار عمى وانصرف بهدوء، استغربت من رد فعل أمى ومعاملتها الجافة لعمى بعد وقوفه بجانبنا فى محنتنا وبعد كل ما فعله معنا، ولكننى لم أرد أن أعاتبها، نظرتُ إليها فوجدتُ "إلهام" تلعب بدميتها على رِجْل أمى وأمى تحتضنها بشوق وحب.

اليوم التالى صباحًا حضرَتِ الممرضة فى موعدها المتفق عليه، أدخلتها لحجرة

والدتى فتعرفتْ عليها، ثم سلمتها روشتة الدواء والأدوية وورقة بتعليمات الطبيب، التفتُّ لوالدتى وقلت لها "دى يا ماما الممرضة الى بعتها دكتور حمدى، حتَّابع معاكى الأكل والأدوية والعلاج الطبيعى" ثم جلستُ بجانبها على السرير وأمسكتُ يديها وقلتُ "أنا نفسى تخفى يا أمى بسرعة ونرجع زى الأول" رأيتها تهز رأسها موافقة وتبتسم، فقبَّلتُ رأسها وقلتُ لها "حسيبك تفطرى وتاخدى العلاج وأنا قاعد برة لو عوزتى حاجة ابعتى لى الممرضة"، قبَّلت يدها وانصرفت بعد أن أكدت على الممرضة بضرورة الالتزام بتعليمات الطبيب، فابتسمت بثقة وقالت "ما تقلقش حضرتك عليها، هى فى إيد أمينة".

خرجت من الفيلا واتجهت إلى تكعيبة العنب فى الحديقة، كان هذا المكان مكان أبى المفضَّل لتمضية فترة العصارى يوم إجازته؛ حيث يجلس بعد الغداء يتصفح الجرائد ويقرأ الأخبار ثم تلحق به والدتى ومعها فنجان القهوة الذى لا يحتسيها إلا من يديها. جلستُ على كرسى أبى المريح ونظرت حولى أتامل الحديقة، حزنت على حوض أزهار التوليب قد ذبل كله، كما ملت برأسى للوراء أتامل السماء الصافية، كانت حياتنا فى صفائها ونقائها إلى أن انقلبت رأسا على عقب بعد موت والدى، ظللت شارد الذهن إلى أن سمعت خطوات "إلهام" آتية من خلفى تبحث عنى وتنادى: "هانى هاني" التفتُّ إليها مشيرًا

بيدى: "تعالى يا لومى أنا هنا" تقدمت ناحيتى بخطواتها الصغيرة فوقفت أمأمى مادَّة ذراعيها كعادتها لأحملها، وبالفعل حملتها ورفعتها قاذفا إياها فى الهواء عاليا عدة مرات وهى تصرخ ضاحكة، أنزلتها ضاحكًا وأجلستها على ركبتى فاحتصنتنى بحب ثم نظرت إلىَّ وقالت "هو بابا رجع من السفر؟" فقلت لها مغتصبًا ابتسامة "لا يا حبيبتى هو لسة مسافر"، قالت "هو ليه ما رجعش مع ماما؟" قلت لها وأنا أشعر بالمرارة فى حلقى "معلش يا لومى هو مضطر يتأخر عشان عنده شغل كتير لازم يخلص"، ردَّت بضجر "يووووه هو راجع إمتى؟ ده اتأخر أوى" وقالت باستنكار "هو لسة حيتأخر تاني؟ طيب

أنا زعلانة منه ولما ييجى مش حكلمه" ربتُّ على شعرها الجميل وقلت "اوعِى تزعلى من بابا يا "إلهام" ده بابا بيحبك جدًّا وانتى عارفة إنه ما يمنعهوش عنك غير حاجة فوق إرادته"، ابتسمت ببراءة وقالت "وأنا كمان بحبه أوى وهو وحشنى خالص، وأنا كل يوم بحلم بيه" ضممتُها إلى صدرى بحنان وقلت لها "ممكن أطلب منك طلب، ممكن ما تكلميش فى الموضوع ده أدام ماما عشان هى تعبانة وما تزعلش إن بابا مسافر" أجابتى بهدوء "حاضر"، قلت مغيرًا الموضوع "طيب إيه رأيك تساعدينى فى تحضير الفطار؟" هزَّت رأسها بالموافقة، قمت وحملتها على كتفى

وجريت بها وسط ضحكاتها العالية وذهبنا إلى المطبخ لتجهيز الفطور.

كانت الأيام تمر علىَّ بطيئة وثقيلة؛ فأنا لم أعتد المكوث فى البيت لفترات طويلة منذ طفولتى، ولكننى لم أستطع الذهاب للمصنع وترك "إلهام" وحيدة فى المنزل، كان "عم فتحى" يتصل بى بشكل شبه يومى يطمئن علىَّ وعلى صحة والدتى ويخبرنى بآخر المستجدات فى المصنع، كنت مطمئنًا على سير العمل لوجود عمى فؤاد و"عم فتحى"، مرَّ ما يقرب من شهر وحالة أمى من سيئ إلى أسوأ وفقدت الكثير والكثير من وزنها، وصحتها تتدهور بسرعة، حتى إنها أصبحت تغيب عن الوعى لفترات طويلة، ولم تعد تشعر

بوجودى بجانبها! تعجبت أنها لا تستجيب للعلاج رغم تأكيد الممرضة أنها تتحسن، ولكننى لم أستطع أن أكذِّب عينىَّ. فى يوم حدثتُ الممرضة وقلت "أنا شايف أن أمى خسّت أوى وصحتها بتتأخر ومش بتستجيب للعلاج وده عكس كلام دكتور حمدى إنها فى خلال وقت قصير حتتحسن!" ثم أكملت "أنا بفكر أنقلها المستشفى" ارتبكت الممرضة وتلعثمت: "لا لا مافيش داعى للمستشفى هى بس محتاجة شوية وقت وصبر، أنت عارف الصدمة إلى مرت بها كانت شديدة" تملكنى القلق على أمى ولكننى وثقت فى كلام الممرضة، وبعد مرور ثلاثة أيام على حديثنا كنت أجلس فى الريسبشن أقرأ فى كتاب، عندما

فوجئت بالممرضة تخرج مسرعة من غرفة والدتى وتجرى بهلع فاستوقفتُها وقلت لها "فى إيه؟ ماما تعبانة أو حاجة؟" فقالت بارتباك "حروح الصيدلية أجيب دوا ضرورى" قلت لها "اكتبى لى اسم الدوا وأنا أجيبه لك" قالت لى وهى تتجه للباب مسرعة "مش حينفع أنا لازم أجيبه بنفسى، ما تقلقش مش حتأخر مش حتأخر" واختفت من أمامى فجأة، تملكنى القلق من تصرفاتها المريبة فرميت الكتاب من يدى، وهرعت إلى غرفة أمى فوجدتها مستلقية على سريرها فى حالة يُرثى لها، وسمعتها تخرج أصواتًا متحشرجة من فمها، اقتربت منها صارخا "ماما ماما ردى عليَّه" شعرت بها تلفظ أنفاسها الأخيرة، أسرعت أخرج

الموبايل أطلب الإسعاف لكننى لم أكمل المكالمة، وكانت أمى قد فارقت الحياة، هربت الدماء من عروقى، شعرت بالبرودة تسرى فى سائر جسدى من هول الصدمة كيف ماتت أمى الغالية بهذه السرعة، لم يمر على موت أبى سوى شهر واحد، ما الذى فعلته فى حياتى يا ربى لأعيش هذا الشعور الأليم باليتم مرتين فى أقل من شهر، بعد فترة فتحت "إلهام" باب غرفة أمى تنادى علىَّ، فوجدتْنى جالسًا على الأرض ممسكًا بيد أمى وأبكى بحرقة، فخافت "إلهام" وسألتنى وهى تنظر لأمى بقلق "فى إيه يا "هانى" بتعيط ليه؟" فوقفت سريعًا واستدرت إليها لأحجب رؤيتها لأمى، ثم مسحت دموعى سريعًا

وأخذتها من يدها خارج الغرفة وأغلقتها خلفى
سألتنى "إلهام" هى ماما ما لها؟ قلت لها
"نايمة يا حبيبتى" سألتنى: "أنت زعلان
ليه يا هاني؟" قلت لها "أصل الممرضة يا
"إلهام" مشيت فأنا زعلت، وقلت مين
حيأكِّل ماما ويدى لها الدوا بعد كده؟"
اقتربت "إلهام" منى واضعة يدها الصغيرة
على فمها وقالت بصوت خافت متلفتة
حولها بخوف "أحسن إنها مشيت دى ست
شريرة ووحشة، ما كانتش بتأكِّل ماما ولا
بتديها الدوا" نظرتُ إلى "إلهام" بذهول
وأمسكت ذراعها وقربتها منى وقلت "ليه
بتقولى كده يا إلهام؟" ردت "أصلى مرة
دخلت عند ماما فلقيتها بترمى الأكل
والدوا فى الزبالة، ولما قلت لها كده حرام

يا طنط، قالت لى لو قلتى لحد حديكى حقنة كبيرة". وقع كلام "إلهام" على رأسى كالصاعقة، شعرت بالصدمة لو صدقت "إلهام" فى كلامها فمعنى ذلك أن تلك الممرضة الملعونة تعمدت قتل أمى، ولكن لماذا فعلتْ ذلك؟ شعرت بالحنق أخرجت الموبايل أتصل بالطبيب "حمدى" الذى أرسل لنا هذه الشيطانة، أتأنى صوته: "ألو" قلت صارخا فيه بدون مقدمات "أنت يا دكتور حمدى جايب لنا ممرضة ولا جايب واحدة سفاحة تقتل أمي؟" لم يستوعب الطبيب شيئًا فقال"أنت بتتكلم عن إيه؟" فقلت له "الممرضة اللى أنت بعتّها لنا قتلت أمى وهربت، أقسم بالله أنا حوديك أنت وهى فى ستين داهية

وحققل لكم المستشفى يا مجرمين يا قتلة!" رد الطبيب بثقة "أنا ما بعتش حد يا هاني". ظننته يحاول التنصل من جريمته قلت له "مش عمى فؤاد كلمك واتفق معاك وأنت رشحت الممرضة دى؟" رد الطبيب "أنا ماحدش كلمنى من آخر مرة كنتم فيها عندى". شعرت بعدم التصديق فأكمل الطبيب مؤكدًا: "عمك ما اتصلش بيَّه ولا أنا بعت حد"، سقط الموبايل من يدى، شعرت بالصدمة وعدم التصديق، لا لا أيعقل أن يتفق عمى مع الممرضة على قتل أمى؟ لماذا؟ ماذا فعلت له أمى ليقتلها؟ كنت فى حالة انهيار تام فاتصلت بـ"عم فتحى" وطلبت منه أن يحضر ويحضر معه زوجته "الحاجة بدرية"

لتعتنى بـ"بإلهام". تظاهرت بالتماسك وأخذتُ "إلهام" من يدها وأدخلتها غرفتها وقلت لها "فى حد حيجى يلعب معاكى دلوقتى" قالت لى"أنا عايزة أروح أقعد مع ماما"، فى هذه اللحظة لم أستطع تمالك نفسى وأجهشت بالبكاء؛ فلم أعد أقوى على التظاهر بالقوة أكثر من ذلك، لم تفهم "إلهام" شيئًا ولكنها احتضنتنى بحنان وأخذت تربت على يدى بكفيها الصغيرتين ثم قالت "خلاص خلاص ما تزعلش يا هانى أنا حلعب فى أوضتى ومش حخرج منها بس ما تعيَّطش".

بعد فترة وصل "عم فتحى" مصطحبًا زوجته التى اتجهت مباشرة إلى غرفة "إلهام" لإلهائها، حتى لا تشعر بالحركة الغريبة فى البيت،

وأن والدتنا قد انتقلت إلى مثواها الأخير. انفردتُ "بعم فتحى" وحكيت له كل ما حدث فذُهل ولم يصدق وقال "مش معقول يا بنى الأستاذ "فؤاد" يعمل كده!" قلت له "طيب تفسر بإيه كلام "إلهام" وكلام الدكتور؟" قال: "إلهام صغيرة ومش فاهمة حاجة والدكتور أكيد خايف إنه يتأذى فلازم ينكر صلته بالممرضة"، قلت له "يعنى دم أمى يروح هدر وأنا واقف أتفرج!" ثم أكملت: "أنا حبلغ البوليس، وحقول إن عمى له يد فى موت أمى". وبالفعل اتجهت إلى قسم الشرطة وأمام رئيس المباحث اتهمت عمى بقتل أمى. حضر عمى وهناك أنكر كلامى وأنكر أى صلة له بالممرضة أو بموضوع مقتل أمى، واتهمنى بالجنون

نتيجة فَقْد والدى فى فترة قصيرة، وبالفعل لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه شيئًا وخاصة أن الممرضة أعطتنا اسمًا مستعارًا وليس اسمها الحقيقى، حاولت البحث عنها فى كل مكان ولكنى لم أجد لها أثرًا. خرج عمى من النيابة مبتسمًا منتشيًا واستدار نحوى وقال لى "اللى أنت عملته ده عيب يا "هانى" ومش حيمرّ بالساهل" شعرت بلهجة تهديد متخفٍّ فى كلامه ولكننى أشحت بوجهى بعيدًا عنه؛ فقد كنت متاكدًا من داخلى أن له يدًا فى مقتل أمى.

مرَّ شهران على فراق أمى و"إلهام" لم تملَّ أو تيئس من السؤال عنها، فأبلغتها أنها سافرت عند أبى، ولكنها لم تتقبل هذه

الفكرة. وفى يوم جاءنى اتصال من "عم فتحى" يحثنى على ضرورة الرجوع للعمل وعدم الاستسلام للحزن واليأس، وأبلغنى أن عمى استبد بالشغل أثناء غيابى وأصبح لا يستشير أحدًا؛ بدأت اشعر بالقلق على مصنع والدى!

عزمت أن أذهب إلى المصنع فى ذلك إليوم، وما إن دخلت ورآنى العمال حتى تجمعوا حولى بحب وأخذوا يحتضنوننى ويواسوننى ويقدمون لى العزاء، شعرت أن وجودى وسطهم هون علىَّ كثيرًا، رأيت "عم فتحى" يخترق صفوف العمال إلى أن وصل إلىَّ وقال للعمال "متشكرين يا رجالة كل واحد على شغله"، انصرف العمال كل إلى عمله، ربت "عم فتحى"

على كتفى وقال لى "عامل ايه دلوقتى يا هانى يا ابنى؟" نظرت إليه وقلت "الحمد لله، أحسن كتير"، قال لى "اسمع منى.. أحسن حاجة تلهيك عن حزنك الشغل؛ ارجع شغلك وشوف مالك ومال أبوك الله يرحمه" أخذنى "عم فتحى" ممسكًا بكتفى واتجهنا إلى مكتب والدى، ما إن فتحنا الباب حتى وجدت عمى "فؤاد" جالسًا على مكتب والدى، عندما رآنى شعر بارتباك واضح ولكنه تحكم فى نبرة صوته وقال بثبات "يعنى ما قلتش إنك جاى النهارده يا هانى!" رددت عليه "وهو أنا محتاج أستأذن يا عمى عشان آجى مصنع أبويا"، رد فؤاد: "لا مش قصدى بس وجودك جنب أختك أهم من وجودك

فى المصنع"، وهنا تدخل "عم فتحى" فى الحديث لأول مرة وقال بسذاجة "ما تقلقش يا فؤاد بيه أنا بعت مراتى تاخد بالها من إلهام"؛ وهنا ثار عمى فى وجه "فتحى" وقال له معنفا: "أنت إيه اللى دخّلك هنا؟ وإيه دخلك فى الكلام بينا؟ وسايب شغلك وجاى تتنطط هنا! امشى يالا روح شوف شغلك" نظرت لـ"عم فتحى" فرأيته يغالب دموعه، وقال بإحراج واضح "أنا آسف" وانصرف فى هدوء وأغلق الباب خلفه. اقتربت من مكتب أبى واستدرت أنظر للباب الذى يفصله عن مكتب عمى القديم "هو حضرتك نقلت مكتبك هنا؟" فردَّ عمى ببرود "أيوه بفكر أسيب مكتبى القديم لابنى زياد" نظرت إليه محاولًا استيعاب

ما يقول "زياد!!" رد بتجبر "أيوه "زياد" ابنى حيساعدنى فى الشغل عندك مانع؟" قلت له "ماشى يا عمى على العموم أنا حنزل تحت فى المصنع أشرِف على الشغل الجديد مع عم فتحى" وهنا رفع عمى عن الأوراق فى يده ونظر إلىَّ وقال "روح البيت يا "هانى"، روح أنت مالكش مكان هنا، خاصة بعد ما اتهمتنى بقتل أمك حيكون صعب إننا نشتغل مع بعض" نظرت إليه بذهول وقلت له "أنا ماليش مكان فى مصنع أبويا وابنك "زياد" هو إلى ليه؟ رد عمي: "بص يا "هانى" إنت لسة قاصر مكملتش ٢١ سنة" ثم أخرج سيجارة من العلبة أمامه وأشعلها وأخذ نفسًا عميقًا وأكمل "ف.. من الآخر كده أنا

الوصاية فى إيدى عليك وعلى أختك وعلى المصنع وكل الأملاك"؛ شعرت بالصدمة ولأول مرة أتعرف على نوايا عمى الدنيئة، وأنه يستغل ظروف موت أبى وأمى ليضع يده على مصنع وأملاك والدى، وهنا تأكدتْ شكوكى أنه وراء مقتل أمى، ولكننى تمالكت أعصابى وقلت له "تقصد إيه يا عمى؟" نظر عمى بكره واضح وأشار بيده إلى باب المكتب وقال بحزم "يعنى اتفضل اطلع برة بدل ما أجيب الأمن يشيلوك يرموك برة" وقعت كلماته على مسامعى كالصاعقة وقلت بصدمة "يرمونى أنا برة؟" رأيته يرفع سماعة الهاتف بنفاد صبر ويطلب رقمًا داخليًّا ويصرخ: "ابعت لى الأمن يا بنى بسرعة"

لم أصدق أذنىَّ فخرجت من مكتبه بعد أن أعمت الدموع عينىَّ، جريت بأقصى سرعة وكأننى أهرب من الجحيم، فلن أنتظر حتى يأتى الأمن ويلقوا بى خارج مصنعى ومصنع والدى، لحقنى "عم فتحى" على البوابة الخارجية للمصنع وقال لى "على فين يا هانى؟" التفتُّ إليه صارخا "عمى طردنى من مصنعى ومصنع أبويا" صُعق عم فتحى وقال "ازَّاى يا بنى ده أنت الوريث الشرعى للباشمهندس عادل!" قلت له "هو بيقول إن الوصاية فى إيده"، سحبنى "عم فتحى" جانبًا وأخرج من جيبه "كارت" ودسَّه فى يدى متلفتًا حوله وقال "ده رقم أستاذ "عزمى" المحامى والدك كان بيثق فيه، وكان بيدير له كل أموره

القانونية كلِّمه واسأله أكيد حيفيدك" أخذت من "عم فتحى" رقم المحامى وخرجت من المصنع غير مصدق أن يأتى يوم ويتم إذلالى وطردى من مصنعى!

لقد علَّمنى والدى كل شىء فى الحياة ولكنه نسى أن يعلمنى أهم شىء أن أتوقع الغدر والخيانة من أقرب الناس، اتجهت إلى منزلنا كنت أجرُّ قدمى شاردًا ومنشغل البال، فلقد وضعت فى مأزق كبير يحتاج منى التروى وعدم التسرع. فتحت الباب فوجدت "الحاجة بدرية" تجلس مع "إلهام" على الأرض وتلعب معها بألعابها ما إن رأتنى "إلهام" حتى جرت ناحيتى، احتضنتنى وقبَّلتنى وبادرتنى بالسؤال وهى تنظر خلفى بلهفة: "بابا وماما جم معاك؟"

بلعت ريقى بصعوبة وقلت لها "لا يا حبيبتى بابا وماما لسة مسافرين وحيتأخروا شوية"، تركتنى إلهام وعادت متذمرة لتكمل لعبها، ألقيت التحية على "الحاجة بدرية" ثم اتجهت إلى غرفتى، أخذت أجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا كنت أشعر بالحنق والغيظ الشديدين؛ فلقد كرهت ضعفى صغر سنى وقلة حيلتى، فأقرب الناس ينهشنى ويريد أن يسلبنى كل ما أملك بعد أن تسبب فى حرمانى من أمى، بكيت بمرارة، أخرجت صور والدى ووالدتى من ألبوم الصور وأخذت أحدثهم كثيرًا وأشكو لهم "لماذا تركتمانى وحيدًا فى هذه الدنيا، الحمل أصبح كبيرًا فوق احتمالى، والمسئولية فوق طاقتى"، كاد عقلى أن ينفجر من

التفكير وألف سؤال وسؤال يدور فى ذهنى، لماذا يفعل معنا عمى "فؤاد" كل ذلك؟! فنحن لم نؤذه فى شىء، ووالدى كان يحبه كثيرًا، ويقربه منه ويستأمنه على أمواله، كان يوليه ثقة ليس لها حدود، ووالدتى كانت كالملائكة لم تؤذه فى يوم، بالعكس كانت تحبه وتحب زوجته كأخواتها وتحب أبناءه مثلنا تمامًا، لماذا يدبر قتلها بدم بارد؟ حتى أنا كنت أحبه مثل والدى وتوهمت أنه سيحتوينى ويعوضنى عن حنان أبى، ولكننى فوجئت بوجهه الحقيقى الذى أخفاه ببراعة لسنوات طويلة ونواياه الخبيثة، كدت أُجنُّ سأفقد عقلى أخدت أضرب رأسى بكف يدى لا أعرف ماذا أفعل هل أبلغ الشرطة عنه ثانية؟ ولكن بماذا

سأتهمه؟ فهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه شيئًا.
آااه يارب ساعدنى وقف جنبى أنا ماليش غيرك. ثم تذكرت الكارت الذى أعطأنى إياه "عم فتحى" فأخرجته من جيبى، قرأته ثم قمت بطلب الرقم المدون على الكارت، انتظرت قليلًا ثم أتانى صوت من الجانب الآخر: "ألو"، قلت "ألو أستاذ عزمى المحامى؟" فأجابنى "أيوه مين معايا؟" قلت له "أنا هانى ابن باشمهندش عادل عبد التواب" قال لى متسائلًا بلهفة "أنت فين يا هانى ده أنا قلبت عليك الدنيا! ورحت لك البيت مالقتش حد، وعرفت أن والدتك اتوفت، البقية فى حياتك!" أجبته "حياتك الباقية" قال المحامى "طيب أنا عايز أقابلك ضرورى عشان معايا ورق مهم

يخصك" قلت له "طيب يناسبك نتقابل فى البيت بكرة" رد المحامى "حكون عندك بكرة الساعة ٢ الضهر" قلت له "تمام فى انتظارك"، أنهيت المكالمة وأنا اشعر بشىء من الارتياح لا أعرف سببه، ولكن تسلل بداخلى شعور بالاطمئنان، وقررت أن أفاتح الأستاذ "عزمى" فى مشاكلى مع عمى وأصارحه بشكوكى عندما أقابله غدًا وجهًا لوجه أفضل من الهاتف، ارتميت على سريرى وأغمضت عينى أحاول أن أستريح قليلًا.

استيقظت ثانى يوم على صوت طرقات باب غرفتى، أفقت غير مدرك للوقت، يبدو أننى نمت بملابسى من شدة التعب والإجهاد، قمت واتجهت لباب الغرفة

أفتحه فوجدت أمامى "الحاجة بدرية" نظرت إليها فقالت "متأسفة أنى صحِّيتك، بس أستاذ "عزمى" المحامى جاه وبيقول إن بينكم ميعاد، وأنا قعَّدته فى أوضة المكتب" فركت وجهى بكف يدى أطرد آثار النوم وقلت لها "يااااه أنا نمت كل ده؟!" ثم أكملت: "طيب أنا نازل له" استدارت "بدرية" فاستوقفتها قائلًا "من فضلك اعملى له شاى لحد ما أنزل له" قالت بدرية مبتسمة "حاضر من عينيَّه" غيرت ملابسى على عجل، دخلت غرفة المكتب لأجد الأستاذ عزمى جالسًا بهدوء وعلى ساقيه حقيبة سوداء كبيرة، كان رجلًا وقورًا فى أول السيتينات يبدو عليه الذكاء والحنكة، يرتدى نظارة طبية يضعها على

أرنبة أنفه وينظر من فوقها، اقتربت منه مرحِّبا "أهلا يا أستاذ عزمى" ومددت يدى لمصافحته فمد يده قائلًا "البقية فى حياتك يا هانى يا ابنى شد حيلك" أشرت له بالجلوس وقلت له "متشكر، حياتك الباقية" جلستُ أمامه فنظر إلىَّ "عزمى" نظرة رجل خبير فى أمور الحياة وسألنى "فى حاجة يا هانى؟ امبارح لما اتصلت بيَّه كان صوتك متوتر وقلقان" قررت أنه الوقت المناسب لأصارحه بكل مخاوفى فليس لدى أحد أستطيع أن أثق به وأستشيره، فقلت له "بصراحة يا أستاذ عزمى بعد موت والدى ووالدتى، اتفاجئت أن عمى "فؤاد" معاملته اتغيرت وطردنى من مصنع أبويا ومنعنى من دخوله،

وقالى إنه هو حيكون وصى عليَّه وعلى أختى "إلهام" وعلى كل أملاكنا، وأنا مش عارف أعمل إيه!" سمعنى المحامى بإنصات حتى أنهيت حديثى، ثم التقط حقيبته السوداء وفتحها وأخرج منها مجموعة أوراق وسلَّمها إياى وقال بحزن "الله يرحمك يا باشمهندس عادل، اسمعنى يا "هانى"، والدك كان شكله عنده شك فى عمك ونواياه عشان كده عمل حسابه وكتب وصية قبل ما يموت أن الوصاية تكون لوالدتكم من بعده ومن بعدها لشخص اسمه فتحى السيد عبد الفتاح" نظرت للأوراق فى يدى بدهشة ورددت الاسم خلفه بدون وعى "فتحى السيد عبد الفتاح تقصد عم فتحى؟" ابتسم المحامى

وقال "أيوه عم فتحى.. والدك كان بيثق فيه وقالى
إنه هو الشخص الوحيد اللى حيحافظ
على مالك لحد ما توصل لسن الرشد.
واهى هانت يا بنى كلها سنتين وتكمل
٢١ سنة وتقدر تتصرف فى كل حاجة"
شعرت أن قلبى ينتفض بين ضلوعى من
الفرحة، لم أشعر إلا وأنا أرمى بنفسى
على المحامى وأقبله بشدة من وجنتيه،
قهقة المحامى عاليًا وربت على كتفى
"اطمن يا بنى والدك كان عامل حساب
كل حاجة قبل ما يموت، وكمان سايب
لك جواب معايا قالى أسلِّمه لك لو جرى
له حاجة" فتح المحامى حقيبته مرة أخرى
وأخرج ظرفًا مغلق مكتوب عليه من
الخارج بخط يد والدى "يسلم لابنى هانى".

أخذت منه الظرف بلهفة، أكمل المحامى "كده يا هانى لو عايز من بكرة تنزل مصنع والدك وتشتغل عمك فؤاد ما يقدرش يمنعك، ولا له حق فى إدارة أملاك والدك"

شعرت أن جبلًا من الهم قد انزاح عن صدرى، لأول مرة أشعر بالسعادة والاطمئنان بعد موت والدى، شكرت المحامى كثيرًا وقلت له "حقيقى مش عارف أشكر حضرتك ازاى أنت بجد أنقذتنى أنا وأختى"، ابتسم المحامى ثم هم بالانصراف وقال "لو تحب أعدى عليك بكرة وأخدك نروح المصنع، ونُطلِع عمك على وصية والدك أنا تحت أمرك" أشرت له بالموافقة فأكمل المحامى طريقة إلى الباب وقال "تمام.. حعدى عليك بكرة

الساعة ١٢" قلت له "تمام.. حكون فى انتظارك إن شاء الله". انصرف المحامى وأغلقت الباب خلفه وأنا غير مصدق!

أسرعت إلى غرفتى، وهناك أخرجت الظرف الذى تركه لى والدى بشوق ولهفة من جيبى وفتحته وقرأت فيه: "ابنى الحبيب هانى وأنت بتقرا الجواب ده حكون أنا سافرت بعيد ورحت لأبويا وأمى اللى اشتقت لهم وهم كمان اشتاقوا لى وباسمعهم كل ليلة بينادونى، بقى لى فترة يا ابنى بشوف أحلام غريبة بتتكرر كتير وكأنها إشارات من ربنا أن نهايتى قربت وأنى المفروض خلاص أستعد لمقابلته. أنت عارف يا هانى أنا بحبك أنت وإلهام ووالدتك أد إيه، وما كنتش حابب أنى أسيبك لوحدك فى

الدنيا بس مش بإيدى يا بنى، أنا لما حسيت أن
أجلى قرب كتبت وصية وسجلتها فى
الشهر العقارى وسبتها مع المحامى أن
والدتك تبقى وصية عليك وعلى أختك
ومن بعدها عم فتحى، عم فتحى يا هانى
رغم إنه راجل بسيط بس أصيل وعينيه
شبعانة وعمره ما يقبل يدخل بيته قرش
حرام، وهو أكتر حد أنا شفته حيكون أمين
على فلوسك وفلوس أمك وأختك، وأكيد
حتستغرب أنى ليه ما كتبتش الوصية
لعمك فؤاد وأنى ائتمنت راجل غريب على
فلوسى! لأنى فى آخر فترة يا هانى من
ضمن الإشارات اللى ربنا بعتها لى إنه
فتح عينى على حاجات ما كنتش باخد
بإلى منها قبل كده، وبقيت بشوف فى

عين عمك الكره والطمع، حاولت كتير أكدِّب نفسى بس مواقف كتير حصلت أكدت إحساسى، عشان كده عايزك يا بنى تخلى بالك من نفسك ومن والدتك اللى هى كل حياتى واللى مش عارف حتعمل إيه من بعدى، ومن إلهام جنتى حبيبتى الصغيرة، وأنا متأكد أنى سايب ورايا راجل أد المسئولية، افتكرنى دائمًا يا حبيبى بالدعاء والصدقات، سلامى وقبلاتى لكم جميعا".

فرغت من قراءة خطاب أبى فضممته إلى صدرى وقبَّلته، لقد شعر أبى بكل شيء، استتشف طمع وجشع أخيه، وخاف علينا أن نقع فريسة جشعه، رحمة الله عليك يا والدى

الحبيب؛ حتى بعد موتك ظللت سندى وعونى فى الحياة!

أفقت على يد تهزُّنى برفق، فرفعت رأسى لأجدها السيدة التى كانت هنا بالأمس وذكَّرتنى بأمى، وقفت أمامها متسمِّرًا أنظر إليها بذهول غير مصدق! غريبة لقد عادت إلىَّ مرة أخرى، أيعقل أن تكون عادت من أجلى؟! لا لا ما هذه السخافة، بالتأكيد فقدت شيئًا ما أو تريد أن تستفسر عن عنوان، كان الشبة بينها وبين أمى لا يُصدَّق قد لا تكون الملامح متطابقة ولكن لها نفس الروح ونفس الابتسامة، يبدو أننى كما قال الرجل عنى إنى مجذوب وعقلى خفيف وأصبحت أتوهَّم الأشياء؟ قطعت السيدة حبل أفكارى وسألتنى: "أنت

اسمك إيه؟" لم أجبها، فأكملت: "أنا اسمى سامية"
فقلت لها وأنا شبه مخدَّر: "هاني"،
ابتسمت بفرح واضح وقالت "أنت بتعرف
تتكلم؟" فهززت رأسى، أكملت: "أنت ليه
ما رضتش تاخد الفلوس منى؟" لم أُجبها
قالت "هو أنت فين أهلك؛ باباك مامتك
إخواتك؟" لم أجبها، شعرت بالتعاطف
والشفقة فى عينيها، فقالت لى "طيب
تحب تيجى معايا أشترى لك لبس جديد
لأن لبسك كله بقى مقطع ومش نضيف؟"
هززت رأسى بالموافقة ليس لأننى أريد
ملابس جديدة ولكننى خفت أن أرفض
عرضها، فتتركنى وترحل بعيدًا؛ فأنا لا
أريدها أن ترحل وتبتعد عنى؛ فهى
تذكرنى بأمى بطريقة غريبة، فلها نفس

رقتها وضحكتها وطيبة قلبها. تعجبت من داخلى
فهى الإنسانة الوحيدة التى أشفقت علىَّ
وأنا على هذه الحالة المزرية ولم تنفر
منى أو تتقزز من رائحتى، ربتت على
كتفى بحنان وقالت لى "طيب يالا نركب
العربية" سرتُ معها فى اتجاه سيارتها
الفخمة، فتحت لى باب السيارة بجانبها،
وقفت أنظر على المقعد مترددًا فسألتنى
باستغراب: "فى حاجة يا هاني؟" أجبتها
محرجًا: "بس خايف أوسخ لك العربية"
ابتسمت لى بحنان ورقَّة: "لا اركب ما
تشغلش بالك" ركبت بجانبها متحرجًا من
رائحتى وملابسى المتسخة، وانطلقت
بسيارتها، أخذت أنظر إلى الطريق أمامى
وقد بدأتُ أميز بعض الأشياء وأتعرف

على بعض الشوارع والمحلات، وبعد فترة أوقفت سيارتها أمام عمارة كبيرة راقية فى أحد أحياء مصر الجديدة، ثم نزلت وفتحت لى الباب قالت "انزل يا هانى ما تخافش" ترددت قليلًا ثم نزلت من السيارة وأنا أتلفت فى المكان من حولى، ثم دخلنا العمارة فقابلنا فرد الأمن الذى ابتسم ملقيًا على سامية التحية" مساء الخير يا سامية هانم" ثم بتر كلامه عندما انتبه إلى وجودى معها، فنظر إلىَّ باشمئزاز واضح من فوق لتحت فرمقته "سامية" بنظرة غاضبة جمدت الدم فى عروقه فأطرق رأسه للأرض ولم يجرؤ أن يعلق بكلمة، تركته سامية غير مبالية بنظراته المستهجنة، اتجهت إلى المصعد قائلة

"ادخل يا هانى" ركبنا المصعد الذى توقف بنا فى الدور السابع، كان فى الدور ثلاث شقق، أخرجت "سامية" مفتاحًا من حقيبتها، وفتحت الشقة يمين المصعد ودخلت، أما أنا فكنت واقفًا فى الخارج مترددا، قالت لى مبتسمة "ادخل يا هانى" دخلت شقتها أقدم رِجلًا وأؤخر رجلًا ووقفت أمام الباب على استحياء لأجدها شقة كبيرة جدًّا وفخمة مجهزة على أحدث طراز! قالت "سامية" سريعًا مشيرة إلى شقتها "خد راحتك اعتبره بيتك، وأنا ححضر لك حالًا الحمام عشان تستحمى وتلبس لبس نضيف" تركتنى ودخلت ثم اختفت لدقائق، كنت فعلًا احتاج أن أستحم؛ فالقذارة والحشرات ملأت جسدى، فأنا

هائم ومتلطم فى الشوارع منذ أكثر من شهرين،
انتظرت فى مكانى أمام باب الشقة حتى
جاءتنى مرة أخرى وقالت لى باستغراب
"أنت لسة واقف عندك، على العموم
الحمام جاهز والشامبو والشور جيل
وموس الحلاقة والقصافة، ولما تخلص
البس اللبس النضيف ده وارمِ اللبس
القديم" وناولتنى كيسًا به ملابس نضيفة،
أخذت الكيس منها واتجهت إلى الحمام
حيث أشارت لى، وعندما دخلت الحمام
تخلّصت من كل ملابسى القذرة وألقيتها
فى صندوق القمامة، ثم التقطت موس
الحلاقة وأخذت أنظر إلى شفرته الحادة
وإلى صورتى البشعة فى المرآة، كنت
مغطًّى بالقاذورات والأوساخ راودتنى

للحظات فكرة أن أقطع شريانى وأتخلص من الجحيم الذى أعيشه الآن، ولكننى ما لبثت أن طردت هذه الأفكار من ذهنى؛ فما ذنب هذه السيدة التى أرادت فعل الخير معى أن أوقعها فى مشاكل وأسبب لها الأذى؟ كما أننى لن أرتاح قبل أن أنتقم من الشيطان الملعون الذى دمر حياتى وحياة عائلتى وأذيقه من نفس كأس العذاب الذى ذقته. أمسكت الشفرة بإحكام، حلقت ذقنى، ثم قررت التخلص من شعر رأسى بالكامل الذى أصبح مأوى لكل أنواع الحشرات، عندما انتهيت اتجهت إلى البانيو وأدرت مقبض المياه، فانسابت المياه الدافئة على جسمى ورأسى، عندما لامست المياه بشرتى

شعرت بالقشعريرة تسرى فى أوصالى أسندت جبهتى على الحائط البارد وانفجرت فى البكاء الهستيرى، لم أصدق أننى أخيرًا سأزيل طبقات القذارة والأوساخ التى غطتنى شهورًا، ظللت أراقب المياه وهى تنزل سوداء من على رأسى وجسدى، أخدت أفرك وجهى وجسدى بجنون بالماء والصابون حتى شعرت أن لحمى سيتقطع، وعندما فرغت نشفت جسدى جيدًا وتعطرت بعطر رجالى وجدته أمامى ولبست الملابس النظيفة التى أحضرتها لى "سامية"، تعجبت عندما وجدت الملابس مناسبة لى ونفس قياسى! انتعلت الحذاء فكان أيضا نفس قياسى، نظرت إلى نفسى فى المرآة فرأيت امامى بقايا

هانى القديم، شعرت أننى بدأت أستعيد نفسى،
خرجت من الحمام تفوح منى رائحة
النظافة، وما إن رأتنى "سامية" أمامها
حتى تسمَّرت مكانها وفتحت فمها شاهقة
"سامح!" تعجبت وقلت لها مبتسما "اسمى
هانى" ارتبكت "سامية" قليلًا وتلعثمت،
حاولت تغيير دفة الحديث ثم قالت "أنت
أكيد جعان تعالى؛ حضرت لك الأكل"
اصطحبتنى إلى السفرة جلست أمام
المائدة، كنت أتضوَّر جوعًا وضعت
أمامى كل أصناف الطعام التى أشتهيها
التهمت بنهم كل ما صادفنى من أكل،
وهى كانت تضع يدها على خدها تتأملنى
مبتسمة بحنان الأم، كنت عندما أنتهى
من طبق تقرب لى طعامًا أكثر وأكثر،

وبعد أن فرغت وشعرت بالامتلاء شكرتها على كرمها الزائد، ثم وقفت ومسحت فمى فى فوطة السفرة واستأذنتها فى الانصراف وقلت لها "أنا متشكر على كل اللى عملتيه معايا" وعندما رأتنى أهم بالانصراف جفلت من مكانها وجرت فى اتجاهى وأمسكت ذراعى وقالت "أنت رايح فين؟" قلت لها متحيرًا "مش عارف"، قالت سامية "طيب اقعد معايا شوية واحكى لى عن نفسك؛ أنا معرفش عنك حاجة غير أن اسمك هانى" داعبتها وقلت لها "أيوه، صح هانى مش سامح" عندما سمعت اسم "سامح" رايت الدموع تتلألأ فى عينيها، اعتذرت سريعًا قائلًا "أنا آسف والله أنا كنت بهزر معاكى بس يظهر إنى نسيت

ازاى أتعامل مع البشر" اغتصبت "سامية" ابتسامة وربتت على كتفى بحنان وقالت "سامح ده ابنى وهو فى نفس سنك كده" التفتُّ حولى فى الشقة وسألتها "وهو فين؟" قالت وقطرات الدموع تتدحرج على خديها "مات من سنة فى حادثة هو وباباه وسابونى وحيدة" أوجعتْ كلماتها قلبى أكثر مما هو موجوع، ربتت على كتفها فأكملت "أنا لما شفتك أول مرة فكرتنى بيه عشان كده لما مشيت رجعت لك تأنى، كان فى حاجة غريبة جوايا بتشدنى أنى أرجع لك" ابتسمت بحزن وقلت "حتصدقينى لو قلت لك إن حضرتك كمان فكرتينى بماما الله يرحمها" نظرت "سامية" إلىَّ بحنان وقالت "أنا حاسة أن

ربنا بعتك ليَّه عشان يعوضنى عن ابنى اللى راح منى وهو فى عز شبابه، لو تقبل يا "هانى" تعيش معايا هنا، وربنا يقدرنى وأعوضك عن حنان مامتك" انحنيت أقبل يديها كما كنت أفعل مع أمى فأخذت تقبل رأسى بشوق ولهفة أمٍّ عاد لها ابنها بعد غيبة طويلة، ثم نظرت فى عينى وقالت "اعمل حسابك من النهارده تقولى يا ماما" هززت رأسى بالموافقة، جلست "سامية" بجانبى على الأريكة وقالت لى "أنت واضح من طريقتك أنك ابن ناس ومتعلم مش تربية شوارع، إيه اللى وصلك لكده؟" أخذتُ نفسًا عميقا وقررت أن أحكى لها ما مررت به، حكيت لها قصتى منذ البداية، وحتى مقتل والدى ووالدتى وعند

انتهائى سألتنى سامية "طيب ما رحتش ليه تستلم المصنع وأملاكك من عمك زى ما المحامى قالك؟"

أرحت رأسى للخلف وتذكرت أنه فى صباح اليوم التالى أتى المحامى فى موعده المتفق عليه واصطحبنى للمصنع وهناك قابلنا "عم فتحى" فحكى له المحامى أمر الوصية التى تركها والدى فدمعت عينا "فتحى" من ثقة والدى فيه وقال "الله يرحمك يا باشمهندش "عادل" ده أنا أشيل ولاده وفلوسه فى عينيَّه" ربت المحامى على كتف "فتحى" وقال "هو ده العشم يا عم فتحى" ثم أكمل المحامى موجهًا حديثه لفتحى: "يالا بينا عشان نرجع الحق لأصحابه، وهانى يقدر يشوف شغله

وحاله" هز فتحى رأسه بالموافقة، واتجهنا جميعًا إلى مكتب والدى، فتحه "عزمى" ودخل بدون استئذان، كان بالداخل عمى "فؤاد" ومعه ثلاثة من الموظفين يراجعون معه مجموعة من الأوراق، ما إن رآنا "فؤاد" حتى انتفض واقفًا كالثور الهائج قائلًا "أنتم ازاى تدخلوا المكتب بالطريقة دى ومن غير استئذان!" رد المحامى ببرود مستفز وابتسامة واسعة "سمعت عن حد بيستأذن عشان يدخل مكتبه؟ المكتب ده مكتب هانى عادل عبد التواب" رد عمى متهكمًا على كلام المحامى: "وأنا وصى على هانى عادل عبد التواب" اتسعت ابتسامة المحامى أكثر وأخرج صورة من وصية والدى وألقاها أمام عمى على

المكتب وقال "مش عارف أقولك مع الأسف ولا أقولك لحسن الحظ أن باشمهندس عادل ساب وصية أن فى حالة وفاته هو وزوجته منال الوصاية تتنقل لعم فتحى" فتح عمى فمه على آخره غير مصدق أذنيه والتقط الورقة يقرأ ما فيها بعيون زائغة، وعندما فرغ قبض بحنق على الورقة يسحقها بين يديه ويقطعها مائة قطعة، ثم أشار بحنق واحتقار باتجاه فتحى وقال "ده تزوير! عايز تقنعنى أن عادل أخويا اختار فتحى العامل الجربوع ده يبقى وصى على ولاده وأملاكه؟" أراد "عم فتحى" أن يتشاجر مع فؤاد ولكن المحامى منعه وقال موجهًا كلامه لعمى " لو شاكك فى التزوير ممكن تروح تطعن،

أما دلوقتى يا ريت تسيب المصنع بهدوء بدل ما نضطر نبلغ الشرطة، وقتها حيبقى منظرك وحش" ارتمى عمى على الكرسى من الصدمة، وهنا انسحب الموظفون من المكتب بهدوء، وجد "فؤاد" نفسه وحيدًا بيننا، فحاول تمالك أعصابه وقال متظاهرًا بالطيبة وحسن النية "ليه كل ده يا هانى يا حبيبى؟! كل ده عشان قلت لك تاخد بالك من أختك؟ يكون ده جزائى منك، تبهدل عمك بالمنظر ده، وتدخل أغراب بينا!" ثم أكمل "لو كنت زعلتك تعالى عاتبنى، أنت فاكر أن موت أخويا ومراته كان سهل علىَّ؟" لم أضعف أمام تمثيل عمى البارع هذه المرة، ولم يرقَّ قلبى له، وعندما شعر المحامى بذلك قال

بحزم مشيرًا بيده إلى الباب "اتفضل يا أستاذ فؤاد؛ عندنا شغل" قال عمى باستسلام "حاضر بس ممكن تدونى نص ساعة أجمع أوراقى؟" اعترض المحامى: "أى ورق فى المصنع يبقى ملك المصنع، أنا حراجع الأوراق، والورق للى حلاقيه ما يخصش الشغل حابعته لك على البيت" ازداد غضب وحنق عمى وضرب المكتب بقوة بقبضة يده ثم قام من كرسيه وألقى نظرة ملئها الكره فى اتجاهنا، ثم اقترب منى وهمس فى أذنى بلهجة ملئها الوعيد "وحياة ريم بنتى أغلى حاجة عندى لأخليك تندم يا هانى!" ثم انصرف. انتفض جسدى من تهديده؛ كانت فى عينه نظرة شر ووعيد، ربت عزمى على

كتفى وابتسم وقال مشيرًا إلى المكتب "اتفضل على مكتبك يا بطل ورينا شطارتك"، جلست على مكتب والدى أخيرًا؛ كان إحساسًا غريبًا يتملكنى ما بين سعادة وخوف من أن تكون المسئولية أكبر منى وأفشل وأضيع مجهود والدى طوال هذه السنوات سدى، كان "عم فتحى" ينظر إلىَّ بفخر وهو فى قمة سعادته، وعيونه تملؤها الدموع. اضطررنا إلى كسر الخزانة وسلمت كل الأوراق التى وجدتها بداخلها إلى المحامى لمراجعتها، ثم بدأنا العمل بكل همة ونشاط.

مرت الشهور هادئة بسلام لم أسمع خلالها أى خبر عن عمى، استمر العمل بانتظام فى المصنع وكأن والدى ما زال على قيد

الحياة، لم يتغير شىء وتفهم التجار والعملاء الوضع الجديد سريعًا، ورحبوا بى بينهم، كانت إجازة آخر السنة قد انتهت وبدأت "إلهام" دراستها بأول سنة بالمدرسة، كانت حياتنا مستقرة وهادئة.

.. وفى يوم أتانى المحامى ومعه مجموعة من الأوراق التى وضعها أمامى على المكتب، وقال لى: " دى الأوراق إللى كانت فى خزنة عمك، لما راجعتها لقيته عامل مصايب؛ تلاعب فى الحسابات، وتغيير فى الأرقام، واختلاس مبالغ رهيبة من أيام والدك لما كان لسه عايش".. تفاجأت من كلام المحامى ونظرت فى الأوراق وتأكدت من كلامه.

شردت بذهنى قليلًا وقتها تسرب الشك إلى قلبى.. أيكون عمى هو من قتل والدى عندما اكتشف أنه كان يسرقه ويختلس من أموال المصنع؟ ولكن كيف والأدلة والتحريات والشهود أدانت العامل "حسين"؟ أعتقد أننى أحتاج إلى أن أقابل "حسين" لأعرف منه الحقيقة وتفاصيل ما حدث يوم حادثة والدى، نظرت للمحامى وقلت له: "محتاج تصريح زيارة لحسين فى السجن" نظر إلى "عزمي" وابتسم بخبث وكأنه قرأ ما يدور فى ذهنى فقال: "حطلع لك التصريح وأبلغك" ثم أكمل متسائلًا: "طيب وموضوع الاختلاس لازم نبلغ الشرطة" قلت له: "استنى بعد زيارة

"حسين" لأن شكل "فؤاد" حسابه حيكون تقيل معايا أكتر من سرقة شوية فلوس".

وبالفعل ذهبت لزيارة "حسين" فى محبسه وما إن رآنى حتى هرول ناحيتى منحنيًا على يدى يريد تقبيلها سحبت يدى سريعًا وربت على كتفه فأجهش بالبكاء وبدون مقدمات: "والله العظيم تلاتة مظلوم يا هانى بيه، أنا لا يمكن أقتل باشمهندش عادل، أنا لا يمكن أعض الإيد اللى اتمدت لى، ده أنا لحم كتافى من خيره" هدأته وأمسكته من ذراعه.. أجلسته وجلست أمامه وقلت له: " طيب اهدى يا "حسين" واحكى لى ايه اللى حصل يوم الحادثة بالتفصيل" قال وهو يحاول السيطرة على أعصابه "يوم الحادثة كان

عندنا تسليم شغل العيد، فوالدك كان متفق معايا إنى لو احتجت أى قطع ملابس أبيعها لحسابى أروح أستأذنه، وفعلا اليوم ده طلعت له المكتب، وخبطت الباب ما ردش عليه، جيت أمشى سمعت صوت حد بيتأوه، فتحت الباب بسرعة ودخلت لقيت الباشمهندس "عادل" مضروب والسكينة فى ضهره، شفته كده حاولت أنقذه جريت عليه وحاولت أشيل السكينة من ضهره بس لما لقيت الدم غرق إيدى اتخضيت ورميت السكينة من إيدى وطلعت أجري" قلت له: "يعنى بابا كان عايش لما دخلت المكتب؟" قال حسين مؤكدا: "أيوه كان عايش، والله العظيم ما قتلته، ده أنا أفديه برقبتي" سالته: "ما

شفتش حد خارج من المكتب قبل ما تدخل؟". رد حسين: "لا". قلت له "طيب قبل ما بابا يموت ما قالكش اسم اللى قتله أو عطاك أى علامة أو إشارة" قال حسين: "لا" ثم قال وكأنه تذكر شيئًا: "افتكرت الباشمهندس عادل كان عمال يشاور لى على باب مكتب أخوه، حتى بعدها قلت أكيد كان عايزنى أستنجد بالأستاذ فؤاد بس أنا من الخضة مافهمتش وهربت" هنا فهمت كل شىء واتضحت الصورة أمامى كاملة عندما علم والدى بسرقة " فؤاد" لأمواله وواجهه بالأوراق فخاف "فؤاد" "أن يبلغ والدى الشرطة فقام بتدبير جريمة قتله وكأنها بغرض السرقة، فاستغل فرصة انشغال العمال لتحضير الطلبيات، وقام

بالانفراد بوالدى وطعنه ثم دخل مكتبه مسرعًا
عندما سمع طرقات حسين على باب المكتب، ومنه خرج للمصنع واختلط مع العمال ليثبت عدم تواجده فى مكتبه فى ذلك الوقت، أما "حسين" المسكين فساقه حظه العاثر لدخول مكتب والدى فى ذلك التوقيت، وبصمات "حسين" على أداة الجريمة أحكمت الأدلة حوله، هممت بالانصراف فقال "حسين" بيأس: "إنت مصدقنى يا هانى بيه" ربت على كتفه وقلت: "أيوه مصدقك وحطلعك من هنا وحيدخل مكانك القاتل الحقيقي" نظر "حسين" بذهول إلى وقال: "حضرتك تعرف القاتل؟" ربت على كتفه ثانية وهززت رأسى وانصرفت.

خرجت من زيارة حسين واتصلت بعمى "فؤاد" وكانت تلك أكبر غلطة ارتكبتها، جاءنى صوته "ألو" قلت له: "أنا كنت النهاردة عند "حسين" فى السجن فاكر" حسين الراجل الغلبان إللى لبسته جريمتك؟ عرفت من "حسين" كل حاجة وعرفت أنك إنت إللى قتلت أبويا مش هو" رد عمى متلعثما: "أنت شكلك اتجننت يا "هاني" روح يا ابنى اتعالج" مرة تقولى إنت قتلت أمى ودلوقتى قتلت أبويا أنت إنسان مش طبيعى محتاج علاج" ضحكت عاليًا وقلت له بثقة: "أنا معايا الدليل والدافع أنك قتلت أبويا وحقدمه للنيابة وأبقى ورينى حتعرف تطلع منها إزاى المرة دى؟" قال عمى بارتباك: "دليل ايه؟" قلت

له: "الأوراق إللى لقيناها فى خزنتك فيها الاختلاسات والتلاعب فى الحسابات إللى اكتشفها أبويا، وأعتقد أنها سبب كافٍ للنيابة عشان يتهموك بقتل أخوك" صمت عمى لفترة حتى ظننت أنه أغلق الخط ثم قال: "بص يا "هانى" ماعدش له لازمة إنى أخبى عليك أكتر من كده، أنا حقولك الحقيقة كلها وحثبت لك إنك ظالمنى، بس إدينى آخر فرصة إننا نتقابل وأقدم لك دليل براءتى وبعدها اعمل إللى يخلص ضميرك" رددت عليه صارخا: "أنت إيه ما بتزهقش من الكدب؟ عايز تمثل عليه تانى؟" قال فؤاد بصوت منكسر: "كتر خيرك يا بنى، بس ورحمة أبوك الغالى إدينى فرصة أقابلك عشان حتى الدم إلى

بينا وبعدها اعمل إللى إنت شايفه" استشعرت الصدق فى صوته فقلت له: "بس دى حتكون آخر مقابلة بينا" رد عمى: "أوعدك إنها حتكون فعلا آخر مقابلة، بس أجل تسليم الورق للبوليس لحد ما أكلمك ونتقابل" قلت له: "ماشى حانتظر تليفونك".

اتجهت إلى المصنع كنت منشغلًا فى العمل فى ذلك اليوم حتى تلقيت اتصالًا من "الحاجة بدرية" وكان صوتها شديد الارتباك والقلق "الحقنى يا هانى يا بنى" قلت لها بقلق واضح: فى إيه يا" حاجة بدرية" حصل حاجة؟" قالت بقلق: " "إلهام" لسة ما جاتش من المدرسة ولما اتصلت بيهم قالوا إن الولاد كلهم خرجوا من بدرى"

تملكنى القلق وأخذ الخوف ينهش قلبى ولكننى حاولت التحكم فى نبرة صوتى وقلت لها "ما تقلقيش أنا حكلم مشرفة الأتوبيس يمكن الأتوبيس اتعطل بيهم أو الطريق زحمة" قالت لى: "طيب كلمها يا بنى وطمنى" أغلقت الهاتف واتصلت بمشرفة الأتوبيس أتانى صوتها "ألو" قلت لها: "معاكى هانى عادل عبد التواب أخو إلهام" أصلنا قلقنا إن "إلهام" لسة ما وصلتش البيت" ردت المشرفة: "إزاى يا فندم ده عمها جه أخدها من أكتر من ساعة" انفجرت فيها غاضبا: "وانتى ازاى تسيبيها تركب مع حد غريب؟" قالت: "حضرتك هى جريت عليه وقالت لى أنا حروح مع عمى لأنه حيودينى لبابا فى

الشغل، ولما شفت بطاقته اتأكدت إنه عمها" أغلقت الاتصال فى وجهها، المجرم الحقير أوصلت به الحقارة والدناءة لخطف طفلة صغيرة؟ اتصلت بعمى على الفور رد على من أول جرس وكأنه ينتظر اتصالى قال بصوت شيطانى يملؤه الانتصار: "كنت عارف إنك حتتصل" قلت له بثورة: "إنت إيه شيطان؟ وصلت بيك الحقارة إنك تختطف طفلة صغيرة؟" قال لـي: "كنت عايز أضمن إنك مش حتقدم الورق للبوليس" قلت له: "أنا وعدتك إنـى مش حسلمه" قال: "أصل الحرص واجب، وأنا ما اتعودتش أسيب حاجة للظروف، إهدى كده عشان نتفق". رددت عليه: "نتفق على إيه؟ أنا حبلغ البوليس

إنك خطفت "إلهام" وأنت حتروح فى ستين داهية". قال ببرود: "براحتك بس وقتها ما تلومش حد إلا نفسك بدل ما كنت حقابلك وأديك اختك ابقى خلى البوليس يدور لك على جثتها" هالنى ما أسمعه إنه شيطان حقيقى متجسد فى صورة بشر ولا يتورع عن فعل أى شىء، ثم أكمل: "النهاردة بالليل الساعة ٩ قابلنى على أول الطريق الصحراوى تجيب معاك الأوراق كلها تاخد اختك وتروحوا بألف سلامة، ويا دار ما دخلك شر حتلعب بديلك وتبلغ البوليس إللى قتل مرة يقتل اتنين وتلاتة". قلت له بدون تردد: "الساعة ٩ حكون هناك ومعايا الورق" قال ضاحكا: "وعشان أنت مطيع خد الهدية دى" سمعته ينادى على

إلهام: "لومى يا لومى يا حبيبتى تعالى كلمى هانى" أتانى صوت إلهام "ألو أيوه يا هانى" سمعت صوتها فلم أتمالك مشاعرى أخذت أجهش بالبكاء فى صمت حاولت التحكم فى صوتى: "إلهام طمنينى عليكى انتى كويسة؟" قالت: "آه كويسة" ثم أكملت ببراءة: "عمو فؤاد جه أخدنى من المدرسة وقالى إنه حيودينى لبابا " سمعت صوت عمى: "ماشى يا هانى على ميعادنا النهاردة" وأغلق الخط.

مر الوقت ثقيلًا وبطيئًا وقتها قررت أن اتصل بـ"الحاجة بدرية" وأطمئنها خوفًا أن تبلغ الشرطة باختفاء "إلهام"، فاتصلت بها وأوهمتها أن أتوبيس المدرسة تعطل وأننى ذهبت لإحضار" إلهام" وأنها معى الآن

في المصنع. فهدأت واطمأنت وقالت لى إنها ستذهب لبيتها لقضاء بعض الالتزامات.
وما إن اقتربت الساعة من الثامنة حتى جمعت كل الأوراق التى طلبها منى واستقللت سيارتى وانطلقت بأقصى سرعة إلى المكان المتفق عليه، وصلت قبل فؤاد بأكثر من نصف ساعة، وانتظرته بترقب.. كنت أنظر كل ثانية فى ساعة يدى والتوتر والقلق يقتلاننى، رأيت سيارته آتية خلفى من بعيد فنزلت مسرعًا واتجهت إليه ومعى الأوراق التى طلبها ، ركن سيارته فنظرت داخلها فوجدت "إلهام" ممدة على الكنبة الخلفية.. رميت الورق من يدى فى وجهه وجريت فزعًا لأطمئن عليها وقلت له: "عملت فيها ايه يا مجرم؟

رد: "ما تخافش دى نايمة" فتحت باب السيارة الخلفى وانحنيت عليها لحملها فلم أشعر إلا بضربة قوية على أسفل رأسى من الخلف جعلتنى أفقد الوعى لأستيقظ وأجد نفسى مدفونًا فى القبر حيًّا مع أختى.

كانت "سامية" تسمعنى فى ذهول وصمت لم تتوقع أن يصل إنسان بكراهيته وحقده لهذه الدرجة من البشاعة والإجرام ويقتل أقرب الناس إليه من أجل المال، أخيرا تحدثت معى وقالت: "مش عارفة أقولك إيه، بصراحة أى كلام مش حينفع يتقال دلوقتى" تنهدت بعمق وقلت لها: " فعلا مافيش كلام يتقال، وقت الكلام عدى وفات وجاه وقت الأفعال" نظرت إلى وقالت: "تقصد إيه يا هانى؟ " قلت لها

وكلى غل وحقد: "أكيد حنتقم من المجرم الخسيس إللى دمر حياتى كلها وقتل عيلتى كلها بدم بارد " توقعت أن تثنينى عن تفكيرى وتطلب منى التعقل والتروى ولكننى فوجئت بها تبتسم ابتسامة رضا وفخر وتقول لى: "يبقى لازم نفكر كويس، ونشوف حنبتدى منين، ولازم بعد ما نخلص انتقامنا نختفى أو نسافر لأى مكان" نظرت إليها باستغراب وعدم تصديق: "نختفى أو نسافر؟ هو حضرتك ناوية تساعدينى؟" نظرت فى عينى نظرة غريبة وقالت: "أكيد حساعدك إنت عندك شك؟ أمال أنا جبتك هنا ليه؟" شعرت بالريبة والخوف وسألتها" طيب إيه إللى يخليكى تساعدينى وتورطى نفسك فى

مشاكل إنتى مالكيش دخل بيها؟" نظرت إلى نظرة مخيفة فتجمدت الدماء فى عروقى، وجدت عينيها تتسعان على آخرهما وتجحظان للخارج بشكل مرعب، نظرت إليها فلم أجد بؤبؤ عينيها.. تحولت كلتا عينيها إلى اللون الأبيض.. أصابنى الهلع من منظرها وابتعدت إلى الوراء ببطء، رأيت جسدها ينتفض عدة مرات وكأن بها مس أو شيطان، رأيت رأسها يرجع إلى الوراء وأخذت تصدر أصواتا غريبة من حنجرتها وقتها تأكدت أنها ملبوسة بشبح، يااااه إلهى أشباح القبور تتبعنى وتطاردنى، ذعرت.. جريت فى اتجاه باب الشقة تعثرت عدة مرات حتى وصلت إليه لأفتحه وأهرب من هذه الشيطانة

الممسوسة. ما إن وصلت للباب حتى وجدتها
تقف أمامى مباشرة وتسد على الطريق،
وقفت أمامها أرتجف من الخوف.
قالت لى بصوت أشبه بفحيح الأفاعى آتيًا من
مكان سحيق: "أنا حساعدك على الانتقام
عشأن أنا أمك" سقطت على الأرض
أمامها منهارا.. وضعت كفى أمام عينى
"لا لا أمى ماتت" سمعت الصوت
المخيف الصادر منها "ماتخافش منى يا
هانى أنا أمك، أنا لبست "سامية" عشان
أقدر أساعدك" حاولت تمالك نفسى قلت
لها باكيا: "واشمعنى اخترتى سامية" قال
شبح أمى: "سامية بعد موت ابنها وجوزها
كانت بتيجى المقابر كل يوم وتنام على
قبرهم كنت بسمعها دايما بتتمنى الموت،

مع الوقت فقدت رغبتها فى الحياة وفقدت روحها وبقت جسم من غير روح، فكان سهل إنى أسكن جسمها" ثم أكملت: "بعد ما عمك دفنك إنت وأختك كان صوت أختك وهى بتنادى عليه بيعذبنى قعدت أجرى فى المقابر زى المجنونة بصرخ بدور على حد ينقذكم، دقيت كل الأبواب ولكن ساكنى القبور شكلهم أخدوا على إزعاج الأرواح المعذبة" أكملت أمى: "لما فقدت الأمل إن حد يساعدكم اعتمدت على نفسى واكتشفت إن عندى قدرات أقدر أستخدمها وقدرت أخرجكم من الصندوق، ولما حسيت إن بنتى "إلهام" ما بقتش قادرة تقاوم وإنها خلاص حتموت، اتسببت فى سد ماسورة الصرف الصحى جنب

القبر إلى كنتوا محبوسين فيه، وقتها اضطر
الناس يتجمعوا عشان يصلحوا الماسورة،
وقتها سمعوا صوتك وخرجوك، وبعد موت
"إلهام" حسيت إن كل إللى عملته راح
على الفاضى وإنى مقدرتش أنقذ بنتى من
الشيطان الملعون إلى قتلنى بالبطىء،
كانت روحى ثائرة متخبطة تايهة فى
المقابر بدور على الانتقام زى المجنونة
عمالة أصرخ ماحدش سامعنى، عايزة
أشفى غليلى، لقيت "سامية" مكسورة
وضعيفه ما كنش قدامى غير إنى أسكن
جسمها عشان أقدر أدور عليك وأكون
جنبك وأنتقم لجوزى ولبنتى ضنايا ولليك
من الشيطان إلى فرق بينا وهدم سعادتنا"
شعرت بالاطمئنان ولكننى كنت خائفًا

على "سامية" السيدة الطيبة التى ساعدتنى فقلت "وإيه ذنب "سامية" نئذيها؟ "رد شبح أمى بغضب مخيف . هذا الغضب أطاح ببعض الأثاث من حولى فتجمدت الدماء فى عروقى: "وأبوك وأختك الصغيرة كان إيه ذنبهم أنا كان إيه ذنبى؟ هدأت أمى قليلا عندما رأت فزعى منها ثم قالت مطمئنة: "ما تخافش أنا مش حأذى سامية، أنا حخليها تساعدك عشان أرواحنا المعذبة ترتاح فى القبور، ولما أنتقم من "فؤاد" وأشفى غليلى حاخرج من جسمها، وهى وقتها حتنسى كل حاجة وممكن تنسى إنها قابلتك" بعد لحظات وجدت جسد "سامية" ينتفض ويهتز ورأسها يتلوى يمينا ويسارا لتفيق من تأثير

شبح والدتى المسيطر عليها وترجع لطبيعتها، تلفتت "سامية" حولها باستغراب وقالت: "أنا إيه جابنى هنا؟" ثم وضعت كفها على رأسها بألم "آآه عندى صداع رهيب" كانت تشعر بصداع وإجهاد فساندتها وأجلستها على أقرب كرسى فقالت: "أنا حاسة إنى تعبانة أوى، أنا بقى لى فترة بتحصل لى حاجات غريبة، احنا ننام النهاردة يا حبيبى وبكرة نفكر ونشوف حنعمل ايه" دمعت عيناى شفقة عليها، فقبلت رأسها وقلت لها: "حقيقى أنا آسف" نظرت إلى بوهن لم تعرف عم أتحدث تحاملت "سامية "على نفسها وقامت وأخذتنى من يدى وفتحت لى باب غرفة نوم وقالت: "دى حتبقى أوضتك من النهاردة" أومأت

برأسى فقالت: "تصبح على خير يا ابنى" وأغلقت الباب خلفها بهدوء، ارتميت على السرير كنت أشعر بأن تعب وإجهاد الشهور الماضية قد حل بى الآن، حاولت أن أفكر كيف أن روح أمى المعذبة قد استولت على جسد هذه السيدة؟ وكيف استطاعت أن تتحكم فيها وتسلبها إرادتها لتنفذ انتقامها؟ وهل من الممكن أن تؤذى بسببنا هذه المسكينة؟ شعرت أننا نستغلها لنحقق انتقامنا ولكن ليس أمامنا حل آخر، فعمى هذا الشيطان لم يترك لنا حلا آخر، يجب أن يأخذ جزاءه الذى يستحقه، ثم غلبنى النوم.

استيقظت على صوت طرقات باب غرفتى فأفقت، لم أعرف أين أنا لأول وهلة، وهل

ما حدث بالأمس كان مجرد حلم؟ فتحت الباب فوجدت أمامى "سامية" مبتسمة قالت: "صباح الخير يا حبيبي" قلت لها "صباح الخير يا ماما" ما إن سمعت هذه الكلمة حتى انشرح قلبها واقتربت منى وقبلت رأسى بحب وحنان، قالت: "الفطار جاهز" خرجت معها لتناول الإفطار وعندما جلسنا بادرتنى قائلة: "إمبارح رغم تعبى معرفتش أنام، قعدت طول الليل افكر ممكن نبتدى منين" ثم أكملت"أول حاجة لازم تكلم "فتحى" وتعرفه إنك عايش هو أكتر واحد ممكن يساعدنا" نظرت إليها مفكرا: "صح يا ماما معاكى حق، بس رقمه ضاع منى كان معايا على الموبايل" قالت لى "كلمه على تليفون المصنع"

وافقتها وعلى الفور اتجهت للهاتف مسرعًا وطلبت رقم المصنع وحاولت تغيير صوتى قلت للعامل: "من فضلك عايز أكلم عم فتحى" فرد العامل: "عم فتحى ساب الشغل من فترة، لو تحب ممكن أوصلك بصاحب المصنع" سألته باستغراب: "مين صاحب المصنع؟" فقال "أستاذ "فؤاد" نزلت على الكلمات كالصاعقة بعد صمت قلت له: "طيب ممكن رقم موبايل عم فتحى لأنى قريبه وجاى من البلد وناسى العنوان" قال العامل: "طيب ثوانى أمليه لك" أخذت رقم عم فتحى وعلى الفور اتصلت به أتانى صوته: "ألو" قلت له: "أيوه يا عم فتحى" شعرت برعشة فى صوته وكأنه غير

مصدق "مين معايا" قلت له: "أنا هانى يا عم فتحى نسيت صوتى ولا إيه" أحسسته يغالب دموعه: "إنت فين يا هانى يا بنى أنا كنت متأكد إنك عايش.. إحساسى عمره ما خيب أبدا" قلت له: "أنا محتاج أشوفك ضرورى" قال: "قولى مكانك وآجى لك حالا" أعطيته العنوان قال لى: "ساعة بالكتير وأكون عندك يا بنى" أكدت عليه: "إوعى تقول لحد يا "عم فتحى" إنى كلمتك أو إننا حنتقابل" رد علىّ: "عيب يا بنى هو أنت حتوصينى" أغلقت الهاتف وجلست مع "سامية " أنتظر قدومه بعد أقل من ساعة سمعت جرس الباب فقالت سامية " أنا حقوم أدخل أوضتى مش لازم يشوفنى" اتجهت لغرفتها وأغلقت الباب

خلفها فأسرعت بفتح باب الشقة ما إن رآنى "فتحى" حتى ارتمى فى احضانى وبكى وأخذ يتحسس ظهرى وكتفى وكأنه غير مصدق أنه يرانى أمامه مرة أخرى قال "اتغيرت أوى يا ابنى خسيت أوى ايه إللى حصلك؟" قلت له: "تعالى ادخل وأنا أحكى لك" دخل "فتحى" فأخذ يتلفت حوله باندهاش وقال: "بيت مين ده يا هانى" قلت له: "ناس ولاد حلال عطفوا عليه وجابونى أقعد هنا" شعر فتحى بالارتياح قليلًا وبدأ يسألنى: "إنت كنت فين يا هانى طول الفترة دى؟ لما لقيتك اختفيت إنت وإلهام بلغت البوليس وقتها لقوا عربيتك غرقانة فى الترعة وافتكرنا إنكم غرقتوا" نظرت لعم فتحى وقلت له:

"حتصدقنى لو قلت لك إن عمى فؤاد دفنى أنا وإلهام فى قبر؟" صعق فتحى ولم يستوعب عقله هذه الفكرة مطلقًا فحكيت له تفاصيل اكتشاف "عزمى" التلاعب فى الحسابات ثم زيارتى لحسين فى السجن واكتشافى قتله لوالدى ثم خطف "إلهام" حتى حبسنا فى القبر.

خيم الصمت لفترة طويلة بعد سماع ما دار كان "فتحى" فى حالة صدمة مما يسمع، لم يتخيل ما لاقيته من أهوال، بكى بحرقة على موت الصغيرة "إلهام" وعذابها، ومن وسط دموعه قال: "الدنيا جرى فيها بس يا ربى الأخ يقتل أخوه وعيلته عشان الفلوس ده باشمهندس "عادل" عمره ما استخسر فيه حاجة.. حسبى الله ونعم

الوكيل". ثم أكمل: "إنت لازم تبلغ البوليس لازم المجرم ده يتحاكم وياخد جزاءه" ولكننى قاطعته بإصرار: "لا لا المرة دى مش حبلغ البوليس.. كل مرة أقول آخد حقى بالقانون كان بيطلع منها زى الشعرة من العجين، المرة دى حقى حاخده بإيدى" قال فتحى بخوف: "يعنى حتضيع نفسك عشان كلب خسيس زى ده يا هانى؟" قلت له: "ما تشغلش بالك إنت بس يا عم فتحى أنا قلت أطمن عليك وأطمنك عليه، وبعدين لما اتصلت فى المصنع قالوا لى أنك سبت الشغل" أطرق" فتحى" برأسه وقال: "عمك رجع المصنع وحط إيده على كل حاجة بشكل رسمى بعد ما أوهم الكل أنكم موتوا فى حادثة العربية، وطردنى أنا

وأستاذ عزمى من المصنع" ربت على كتف فتحى: "معلش يا عم فتحى ما تزعلش نفسك" اغتصب "فتحى" ابتسامة وقال: "يا بنى أنا كبرت وما بقتش حمل تعب الشغل وبعدين ده يجى إيه جنب إلى إنت شفته" ثم أكمل: "قولى يا بنى أقدر أساعدك إزاى" قلت له: "أنا عارف أن"ريم" بنت عمى بتروح النادى لتدريب السباحة، إللى طالبه منك تعرف لى مواعيدها، بتروح وتيجى إمتى" نظر إلىّ "فتحي" باستغراب "وإيه دخل "ريم" يا بنى فى إللى ما بينكم" ثم أكمل" إحنا مش عايزين بدل ما كنا مظلومين نبقى ظالمين" قلت له بضيق: "خلاص يا عم فتحى ما تشغلش نفسك بيه أنا حتصرف" سارع فتحى: "يا

بنى أنا مقصدش حاجة بس أنا بنور لك عينيك عشان الانتقام عميك، وع العموم إللى إنت عايزه، أنا حعرف لك كل حاجة وأقولك، عشان أنا واثق إنك لا يمكن تظلم طفلة بريئة بذنب أبوها".

بعد فترة انصرف "فتحى" على وعد باتصال منه لإفادتى بمواعيد "ريم" وخط سيرها بالتفصيل وبعد أن انصرف خرجت "سامية" من غرفتها وجلست على أريكتها كانت قسمات وجهها لا تحمل أى تعبير قال: "برافو يا هانى إنت كده ماشى صح" ثم أكملت: "جوزى كان عنده فيلا فى أكتوبر هى فى مكان نائى وبعيد عن الناس وأعتقد حتكون مناسبة لتنفيذ باقى خطتنا" ثم انخرطت فى ضحك هستيرى

غير مبرر ثم هدأت فجأة ووقفت بدون أن تتبس بكلمة واتجهت إلى غرفتها وأغلقت على نفسها الباب بالمفتاح. كانت تصرفاتها غريبة ومريبة كنت أسمعها فى غرفتها تتحدث بصوت عال وتصرخ وكأنها تتشاجر مع شخص آخر، يبدو أنها تتصارع مع شبح أمى الذى سيطر على جسدها وعقلها ولكننى لم يكن فى يدى شىء لمساعدتها سوى إنجاز المهمة بسرعة ليهدأ شبح أمى ويتركها ترحل فى سلام.

مرت الأيام وكل يوم تزداد رغبتى فى الانتقام من عمى الخائن اللعين الذى تسبب فى قلب حياتنا إلى جحيم تمنيت أن أهدم حياته وأن أسلبه أعز ما يملك.. سأبدا بابنته ريم

فهى أغلى ما يملك فى حياته سأتخلص منها أولا أمام عينيه وبعدها أتفرغ لانتقامى منه، وفى صباح يوم تلقيت اتصالًا من"فتحى" أطلعنى على مواعيد تدريب "ريم " فى النادى وأن فؤاد يصطحبها بسيارته إلى هناك ثم يذهب إلى المصنع وبعدها بساعتين يأخذها من النادى ومنه إلى المنزل، أغلقت مع فتحى الهاتف وطرقت الباب على "سامية" ففتحت لى وكان يبدو عليها الإجهاد والتعب، فالمسكينة بالتأكيد تشعر بالتعب فالشخص الممسوس يعانى ويتألم من الاضطرابات النفسية والأرق المستمر وقلة النوم بادرتنى قائلة: "فتحى فالك مواعيد البنت" فتعجبت من قوة حاسة السمع عندها، ولكننى لم أعلق،

واكتفيت بهز رأسى وقلت لها بكرة "ريم"عندها تدريب فى النادى بكرة الساعة ٥" ابتسمت سامية بنشوة وقالت: "يبقى نبتدى خطتنا بكرة" استدرت فى اتجاه غرفتى فاستوقفتنى سامية قائلة: "هانى أنا حجزت ليك وليه تذاكر سفر على إسبانيا كمان عشرة أيام" سألتها مستغربا: "بس أنا ماعنديش باسبور" ردت باقتضاب: "حتسافر بباسبور سامح" بعد مدة خرجت سامية من غرفتها مخبرة إياى أنها ذاهبة لشراء بعض المستلزمات التى سنحتاج إليها غدًا فى تنفيذ خطتنا للتخلص من فؤاد وابنته ريم، مر اليوم سريعا وسط ترتيباتنا ومراجعة خطتنا أكثر من مرة ودور كل واحد فينا ودور عم فتحى.

وفى اليوم التالى فى تمام الساعة الثالثة خرجت سامية من غرفتها بزى غريب أسود فكانت ترتدى النقاب وتخفى وجهها بالكامل نظرت لها باستغراب فقالت ضاحكة: "عشان ماحدش يعرف شكلى، وإنت كمان اشتريت لك نقاب تلبسه عشان ماحدش يتعرف عليك، والعربية غيرت أرقامها لزقت استيكر على اللوحة، على ما يوصلوا لنا نكون إحنا ركبنا الطيارة وطرنا على إسبانيا" نظرت إليها معجبا بذكائها الفذ، فهى لم تترك شيئًا للصدف ووضعت فى حسبانها كل صغيرة وكبيرة، وتعجبت كيف أتت أمى بكل هذه الأفكار وهى طوال عمرها طيبة ومسالمة لم تفكر أن تؤذى أحدًا.

فى الرابعة استقلت "سامية" سيارتها وانطلقت إلى النادى الذى تتدرب فيه "ريم" اصطحبتها وجلست فى الكنبة الخلفية وانتظرنا فى مكان بعيد عن بوابة النادى، وظللنا نراقب البوابة حتى رأينا سيارة عمى تقترب وتقف أمام بوابة النادى، وتنزل منها "ريم" ثم تستدير له وتشير له بيدها.. وقف عمى قليلًا وعندما اطمأن لدخول ابنته ابتسم وانطلق بسيارته إلى المصنع، وهنا قالت سامية: "كلم عم فتحى وخليه يجهز ويقف قدام المصنع يراقب فؤاد من بعيد ولو حس بأى حركة غريبة يبلغك" نفذت تعليماتها بالحرف، وقفنا فى مكاننا ما يقرب من ساعتين كان الوقت يمر بطيئا وكنا فى ترقب وتحفز للانقضاض فى أى

وقت، وبعد فترة من الوقت رأينا "ريم" تظهر أمام البوابة وتقف وحيدة تتلفت حولها وتنظر فى الساعة بتوتر، يبدو أنها تنتظر وصول أبيها الذى تأخر على غير عادته وهنا سمعت "سامية" تقول: "يالا استعد وقتها انزلقت على الكنبة الخلفية وتقدمت "سامية" بسيارتها ووقفت أمام "ريم " مباشرة تظاهرت أنها تسألها عن عنوان، وما إن اقتربت "ريم" من السيارة حتى فتحت الباب الخلفى، وقمت بجذبها بقوة من ذراعيها ودفعتها داخل السيارة انطلقت "سامية" بأقصى سرعة وسط صرخات "ريم" المتلاحقة واستغاثاتها سمعت "سامية" تقول بعصبية: "سكت البت دى حتلم الناس علينا" فأخرجت منديلًا بسرعة

وسكبت عليه مخدرًا ـ كانت سامية قد اشترته ـ ووضعته على أنفها وفمها، وما هى إلا لحظات حتى خارت قواها واستكانت. انطلقت "سامية" إلى فيلتها فى أكتوبر، وعندما وصلنا أشارت إلى بالنزول لفتح الباب الحديدى للبوابة الخارجية للفيلا، فتحت الباب فأصدر صريرًا قويًا بفعل الصدأ المتراكم عليه، دخلت "سامية" بسيارتها فى حديقة الفيلا، كانت الحديقة صفراء وذابلة يبدو أنها لم تلقَ العناية منذ قرن من الزمن، قمت بفتح باب السيارة وحمل "ريم" على كتفى.. تقدمتنى سامية وفتحت باب الفيلا، كانت فيلا صغيرة مهجورة أشبه ببيت الأشباح كانت الأتربة فى كل مكان وخيوط العنكبوت تتدلى من

السقف، نظرت حولى فلم يكن بها أثاث يذكر سوى بعض الكراسى الخشبية المتهالكة، دخلت غرفة النوم ووضعت ريم على الأرض بعد أن أحكمت وثاقها وعصبت عينيها بقماشة سوداء كانت مخدرة فلم تقاوم أو تصدر أى صوت، استدارت "سامية" ناحيتى وقالت "دلوقتى كلم "فؤاد" وخليه يجى قبل ما يفوق من صدمة حرق عربيته" بالفعل اتصلت برقم "فؤاد " فجاءنى صوته متوترًا: "ألو" قلت له: "إزيك يا عمى" سمعت ارتجاف صوته: "مين معايا؟" قلت له: "أنا هانى ابن اخوك" قال مرددًا "هاني؟" ثم أكمل بلا وعى "إنت لسة عايش؟" ضحكت ساخرا:"كنت فاكرنى مُتّ ولا إيه؟" قال

فؤاد ضجرًا: "نتكلم بعدين يا هانى عشان أنا فى مصيبة وعربيتى اتحرقت وبنحاول نطفيها" ضحكت عاليا وقلت له: "ما أنا عارف، أصل إللى ولع لك فيها ناس حبايبى" ثم أكملت معاتبا بسخرية: "كده يا عمى تتأخر على ريم وما تروحش تجيبها من النادى" وهنا فهم فؤاد اللعبة.. فجأة ثار وقال صارخا: "آآآه يا ابن الك..." قاطعته: "لاء لاء إوعى تغلط أحسن أزعل منك وإنت لسه ما شفتش زعلى" جن جنون عمى وقال: "إنت عملت اللعبة دى مع العيال الصيع دول عشان تعطلونى وتخطفوا بنتى، فين ريم يا هانى ريم مالهاش ذنب فى إللى بينا" قلت له: "تمام تمام لو عايزها تعالى خدها ونتفق" قال

فؤاد سريعا: "إدينى العنوان وثوانى وأكون عندك"
قلت له محذرًا "بس إوعى تبلغ البوليس، عشان بدل ما تروح مع بنتك حبيبتك ابقى خلى البوليس يدور لك على جثتها، فاكر يا عمى مش ده كان كلامك لما خطفت إلهام؟ وكلمتك وقعدت اترجاك ترجعها لى؟" قال فؤاد بالعًا ريقه بصعوبة بالغة: "لا لا مش حبلغ البوليس وحياة بنتى ما حبلغه، قولى العنوان فين" أعطيته العنوان.

وهنا كان دور فتحى أن يراقبه جيدًا ويتأكد أنه لم يبلغ الشرطة، وبالفعل اتصل بى فتحى وأكد لى أنه رأى فؤاد يهرول ويستقل تاكسى، انتظرته وعندما رأيت سيارة تاكسى تقترب من الفيلا ورأيت فؤاد يدخل

حديقة الفيلا ويتلفت حوله بخوف، قمت بفتح الباب له وتعمدت إطفاء كل أنوار الفيلا لتغرق فى الظلام رأيت فؤاد يقترب من باب الفيلا يتحسس طريقه فى الظلام الحالك، وعندما أدار المقبض ودخل من الباب باغته بضربه قوية على رأسه بلوح خشبى فترنح وسقط أرضًا، وهنا قمت بسحبه بمساعدة سامية من أسفل ذراعيه حتى أجلسته على كرسى خشبى فى منتصف بهو الفيلا، وشبكت ذراعيه خلف ظهره وأحكمت ربطهما بالحبال وكذلك أحكمت توثيق قدميه، كان فاقد الوعى تنزف الدماء من خلف رأسه كانت "سامية" تراقبه فى غيظ، وأنا أعرف أن أمى هى من تراقبه وتراقبنى وأنا أثأر لها

من الشيطان الذى هدم حياتنا، وبعد أن أحكمت وثاقه أحضرت دلوًا وملأته بالماء البارد ثم سكبته على رأسه دفعه واحدة، فأجفل من غيبوبته وانتفض مفزوعا، رآنى أقف أمامه وبجانبى سامية فنظر إلينا، ثم تلفت حوله فزعا: "فين ريم بنتى يا هانى؟" قلت له: "موجودة" نظر حوله ثانية وقال: "هى فين؟ أبوس إيدك خلينى أشوفها وأطمن عليها" قلت له: "سبحان الله حتى الشيطان بيخاف على ولاده؟ إيه خايف عليها؟ رد باكيًا بحرقة: "طبعا يا بنى الضنا غالى" وكأن بركان غضب انفجر سمعت "سامية" تصرخ عاليا بمرارة وحنق واقتربت من فؤاد تجذب رأسه إلى الخلف حتى كادت تخلعها وسط تأوهاته وصرخاته

"ومدام عارف إن الضنا غالى قتلت إلهام ليه؟"
ثم تركت رأسه فجأة، نظر إليها فؤاد بريبة وخوف وسألها: "إنتى مين؟ اقتربت منه أكثر وجذبت شعره بقوة أكثر إلى الخلف حتى كادت تكسر عنقه.. جحظت عيناها بشكل مخيف وتغير صوتها لصوت أمى ولكنه كان مخيفا أشبه بالفحيح: "أنا "منااال" انتفض جسد فؤاد من الرعب وأخذ يصرخ: " لا لا لا منال ماتت" وأخذ يجذب ذراعيه بشدة محاولا إفلات نفسه، وفك قيده وسط ضحكات هستيرية مرعبة صادرة من شبح أمى التى ألقت الذعر فى قلبه أكثر وأكثر، حاول فؤاد الوقوف بكرسيه والهرب من شبح منال ففقد اتزانه وسقط على ضهره بكرسيه، اقتربت منه

أمى بعد أن سيطرت على "سامية" كلية وجلست بجانبه على الأرض، ثم أحكمت قبضتها على رقبته تريد أن تنتزع روحه حتى ازرق وجهه وخرج لسانه خارج فمه وقالت له بتشفٍّ "حجيب لك بنتك حبيبتك عشان تشوفها وأنا بولع فيها قدام عينيك، وتسمع صراخها وهى بتستنجد بيك وأنت مش حتقدر تعملها حاجة" ثم أرخت أمى قبضتها عن رقبته فسعل فؤاد بشدة وأخذ عدة شهقات متلاحقة ثم تمالك نفسه، وزحف بكرسيه بصعوبة ناحية "أمى" وأخذ يقبل قدميها ويرجوها: "أبوس رجلك بلاش بنتى مالهاش ذنب، أنا المجرم انتقموا منى أنا، موتونى أنا، هى لسة صغيرة"
ركلته أمى بقوة فى وجهه ركله كسرت

أنفه صرخ فؤاد متالمًا.. ابتسمت أمى عندما رأت الدماء تسيل على وجهه ثم استدارت ناحيتى وقالت: "جيب البنت يا هانى".

دخلت الغرفة التى تقبع فيها ريم وحرصت على إخفاء وجهى كانت ترتعد وتبكى فى صمت دخلت عليها فانتفضت رعبا وقالت: "مين؟" كانت معصوبة العينين ومقيدة اليدين ولكننى لم أجبها وجذبتها من شعرها أمامى، أحضرتها أمام" فؤاد" كانت ترتجف من شدة الخوف عندما رآها والدها على هذه الحالة انهار، ففككت قيد يديها ودفعتها عليه أرضًا، أنزلت العصابة عن عينيها وعندما رأت أباها قالت: "بابا بابا يا حبيبي" فارتمت ريم فى أحضان والدها تتحسسه أخذت تحتضنه وتمسح

الدماء عن وجهه بطرف فستانها تذكرت وقتها إلهام وهى تربت على وتمسح دموعى وهو آخذ يقبلها بجنون ويبكى بحرقة ويردد "سامحينى يا ريم، سامحينى يا بنتى، أنا السبب فى إللى وصلنا له ده".

خرجت "أمى" من الغرفة لتحضر بعد دقائق وفى يدها زجاجة كبيرة ممتلئة بالبنزين وبدون أن تنطق بكلمة جذبت ريم بقوة من شعرها من أحضان "فؤاد".. جرتها على الأرض وسط صرخات الصغيرة المتتالية ثم أجلستها بعنف على كرسى خشبى أمامه وسط توسلات فؤاد التى لم تنته، وأشارت أمى إلى أن أساعدها فى تقييد ريم إلى الكرسى وبالفعل قيدتها. عندما انتهيت، التقطت أمى زجاجة البنزين وسكبتها

كاملة على رأس الصغيرة وكامل جسدها، أخذت
ريم تستغيث بأبيها "بابا الحقنى يا بابا"
أخذ فؤاد يصرخ بذعر متوسلا: "أرجوك يا
هانى أرجوكى يا منال أنا حتنازل لكم عن
كل حاجة، المصنع والفلوس وكل قرش
أملكه، مش عايز حاجة غير إنكم ترحموا
بنتي" كانت الصغيرة تشعر بالفزع وتصرخ
خوفًا.. ذعرها وارتجافها حتى نظراتها إلىّ
ذكرتنى "بإلهام" نظرت ريم ناحيتى وقالت
منتحبة: "أرجوك يا هانى ما تموتنيش أنا
ما عملتش حاجة" رق قلبى من كلماتها،
وهنا نظرت إلى"أمى" مستعطفا ولكنها
كانت مصرة على إنهاء انتقامها، وقالت
بصوت كأنه آت من الجحيم: "هات
الكبريت يا هانى وولع فيها قدام أبوها

خلى قلبه يتحرق عليها زى ما حرق قلبى على بنتى ضنايا" ظل فؤاد يصرخ مستنجدًا نادمًا على كل ما فعله، نظرت إلى أمى مستنكرة تباطئى فتحت فمى لأول مرة وقلت لأمى راجيا: "بلاش ريم يا ماما خليها تروح إحنا حسابنا مع أبوها".. رأيت حمم الغضب تتطاير من عينيها وتنفجر فى وجهى وقالت صارخة: "وأختك إلهام كان ذنبها إيه لما دفنها حية وفضلت تتعذب لحد ما ماتت" كانت ريم تبكى فى رعب..قلت مخاطبًا بقايا الرحمة بداخل أمى: "تفتكرى يا أمي"إلهام" حتبقى مبسوطة لما نقتل "ريم" تفتكرى هى كده حترتاح؟ إنتى ما ربيتناش يا أمى إننا نظلم حد برىء "نظرت أمى إلى الصغيرة

التى أخذت تبكى وتتوسل إليها وقالت: "والنبى يا طنط ورحمة "إلهام" عندك ما تموتنيش أنا ما عملتش حاجة، أنا كنت بحب إلهام زى أختى وكنت بلعب معاها "رأيت مشاعر الأمومة تطغى على شهوة الانتقام، مشاعر الأمومة حولت الوحش الثائر القابع داخل أمى إلى قلب ينبض بالرحمة والشفقة، رق قلب أمى عندما رأت ارتجاف الصغيرة من الخوف.. يبدو أنها ذكرتها بإلهام فأشاحت بوجهها بعيدًا توارى ضعفها.. ثم قالت لي: "خدها من هنا، وديها الأوضة واقفل عليها كويس" حللت وثاق "ريم" سريعا قبل أن ترجع أمى فى رأيها، وقد كتب لها عمر جديد

فى لحظة، ثم أخذتها إلى غرفة النوم وأغلقت عليها الباب بالمفتاح.

عدت إلى فؤاد ونظرت فى عينيه مباشرة وسألته:

"قبل ما أقتلك عايز أعرف قتلت أبويا وأمى وحاولت تقتلنى أنا وإلهام ليه؟" نظر فؤاد بحزن وندم: "الشيطان سيطر علىّ والغيرة عمت قلبى "عادل" طول عمره كان ناجح فى الدراسة وفى حياته، كل الناس كانت بتحبه وبتقدره، طول عمرى كنت بحس نفسى جنبه إنى ولا حاجة، حتى منال الإنسانة الوحيدة إلى حبيتها وقررت أتجوزها اتفاجئت بيها بتحبه هو وبترفضنى عشانه، كل حاجة حلمت بيها بقت ملكه، وفى يوم وليلة بقى هو الباشا الكبير صاحب المصنع والأملاك والفلوس

الآمر الناهى، وأنا كنت مجرد موظف عنده بالأجرة، حتى مراتى كانت دايما تقارن عيشتنا بعيشتكم وتقارنى بأخويا الصغير عادل وإللى وصل له، كل ده زود حقدى وغلى منه اكتر" ثم أكمل فؤاد بمرارة:

"حاولت أعيش ولادى فى نفس مستوى ولاده فاضطريت اختلس من فلوس المصنع، الأول عادل ماكنش ملاحظ لحد ما فى يوم اكتشف إللى بيحصل من ورا ضهره، فواجهنى بغضب، حاولت أنكر هددنى إنه حيبلغ البوليس وفى لحظة الشيطان والكره اتملكنى وقتلته، بعد ما مات لقيت إن وضعى ما اختلفش كتير وفضلت برده أجير بس المرة دى عند ولاد أخويا، بعد ما منال خرجت من

المستشفى حسيت إنها متغيرة ورافضة تتعامل معايا حسيت إنها شاكة فيه أو عادل يكون حكى لها حاجة، خفت لما تتكلم أتكشف واروح فى داهية، فاتفقت مع واحدة إنها تعمل ممرضة وكل إلى طلبته منها إنها ما تديهاش العلاج عشان ما تخفش وما تتكلمش والبنت من نفسها افتكرت إنها كده حتخدمنى فمنعت عن منال الأكل والدوا لحد ما حالتها ساءت وماتت وقتها خلاص ما كنش ينفع أتراجع ما لقتش قدامى حل غير إنى أنخلص من باقى العيلة عشان الثروة كلها والأملاك تكون بتاعتى أنا".

صمت فؤاد عن الحديث فساد سكون ثقيل لا يقطعه سوى صوت أنفاسه المتقطعة..

قطعت الصمت فقلت له: "أنا كان ممكن أنتقم منك أنى أموت ولادك قدام عينك واحد واحد لكن أنا مش حوصل بالخسة لمستواك" ثم أكملت: "أنا حكتفى أنى أنتقم منك إنت، وزى ما وعدت إلهام إنى حخليك تتمنى الموت ولا تطولهوش" نظر إلى "فؤاد" بذعر وقال: "حتعمل ايه يا هانى حتعمل ايه؟" ضحكت ضحكة مجلجلة ثم اقتربت منه وفى يدى سكين كبير حاد ومدبب وبنصل السكين قمت بتمزيق أزرار قميصه وتمزيق سرواله الذى يرتديه حتى اصبح عاريا أمامى كيوم ولدته أمه وقلت له: "أول حاجة نقطع لسانك عشأن صوتك وصريخك اصبح بيزعجنى" وهنا نظرت إلى أمى

التى سرعان ما انضمت إلى ووقفت خلف "فؤاد"
وأخذت تضغط على عنقه بقوة بكلتا يديها
حتى كاد يختنق فأخرج لسانه خارج فمه
فقمت بقطعه من منتصفه بنصل السكين
الحاد ورميه تحت قدمى وسحقه بحذائى،
أخذ فؤاد يتلوى ويرطم رأسه وظهره فى
الكرسى ألما حتى أغشى عليه من الألم،
جلست أمامه على الأرض أنظر للدماء
المتدفقة من فمه، كانت رؤية دمائه
النجسة تزيد النشوة فى داخلى، رأيت نظرة
التشفى والتلذذ فى عين أمى، تركته مغشيًا
عليه وخرجت أسير فى الشوارع أبحث
عن روث الحيوانات وألملمه من الطرقات
والحدائق، قمت بتجميع أكبر كمية ممكنة
من فضلات الحيوانات ورجعت إلى الفيلا

وجدته قد بدأ يستعيد وعيه ويتأوه فى ألم واضح، عندما فتح عينيه وجدنى أمامه مباشرة فانتفض وكأنه رأى عزرائيل، ضحكت عاليًا من نظرة الرعب والهلع المرتسمة على وجهه.. اقتربت منه وفتحت أمامه قطعة قماش من الجلد الأسود ورصصت أمامه على الأرض مجموعة سكاكين وسواطير بأحجام مختلفة وأخذت أسن فيها أمام عينيه وقلت له مبتسما: "تحب نبتدى منين" نظر إلى برعب وأخذ يهمهم بصرخات توسلات غير مفهومة فقلت له أنا شايف نبتدى بودنك، وقمت بالقبض على سكين وقطع أذنه اليسرى تخبط بالكرسى على الأرض يتلوى وينتفض من الالم، وهنا انضمت أمى إلى بعد أن

قبضت على سكين حاد مسنن.. جثونا فوقه وأخذنا نحدث جروحًا عميقة بالسكاكين فى وجهه وصدره وذراعيه وفخذيه ومنطقته الحساسة حتى أصبح يسبح فى بحر من الدماء تعمدنا إحداث جروح عميقة ولكن غير مميتة لم نرد أن يذوق الراحة الأبدية بهذه السهولة. وبعدها وقفت "أمى" تلتقط أنفاسها ثم أحضرت زجاجة كحول وسكبتها بابتسامة واسعة على جروحه الغائرة رأيت عروقه تنتفض من الألم من سائر جسده ورقبته حتى غاب عن الوعى، كنا نتلذذ بتعذيبه، كل نظرة ألم وفزع كانت تشفى غليلى وتطفئ نارى، بعد فترة عندما استعاد وعيه اقتربت منه وجذبته من شعره وقلت له "خلاص قربت

أخلص" أخرجت كيس مخلفات الحيوانات وأخذت أحشو جروحه الغائرة بروث الحيوانات كان يصرخ بهلع شعرت أن قلبه سيتوقف من الألم، أحكمت وضع الروث على جروح وجهه وصدره وذراعيه وفخذيه ثم مسحت يدى فى ملابسه وقلت له بتشفٍّ: "شفت ازاى خلصنا بسرعة" كنت أضحك بهستيرية على منظره المهين.. جلست أمامه أنا وأمى نراقبه بالأيام فرؤية جروحه وهى تتعفن أمامنا كانت مصدرًا للنشوة والسعادة ، بالفعل كما توقعنا شعر بألم لا يحتمله بشر، تمنى الموت مليون مرة ولم ينله، جعلته يرى الديدان تخرج من جروحه وتأكل أجزاء من جسده أمام عينيه، أخذ يتحلل جزءًا جزءًا وهو على

قيد الحياة كانت تصدر منه نفس الرائحة الكريهة التى شممتها فى القبر، لكن هذه المرة كانت الرائحة كالمسك النقى فى أنفى إنها مسك الانتقام، كنت أسمع طنين الذباب الأزرق وهو يحوم حوله ويأكل من جروحه فكان يطربنى غنائه وكأنه ينشد أجمل الألحان، واظبت أن أسقيه الماء بانتظام حتى أبقيه على قيد الحياة لأكبر فترة ممكنة، رأيت وجهه وعينيه يأكلهما الذباب والديدان حتى اختفت ملامحه تمامًا ووصلت إلى مخه الشيطانى تلتهمه بلا رحمة، وهنا قررنا أن نتركه وننصرف فكان جيفة شبه متحللة، بالإضافة إلى ذلك أن موعد طائرتنا قد قرب، باقى اربع ساعات فقط على موعد الطائرة، وهى

بالكاد كافية للوصول إلى البيت لإحضار الحقائب ومنه إلى المطار.

عندما استعددنا للرحيل دخلت غرفة "ريم" وعصبت عينيها بقطعة قماش وكنت أواظب على تقديم الطعام والماء لها وقلت: " يالا يا ريم حروحك البيت" فقالت لى بلهفة: "وبابا فين؟" لم أجبها ولكننى جذبتها من ذراعها بقوة وخرجنا ثم دفعتها على الكنبة الخلفية بداخل سيارة "سامية" التى كانت تنتظرنى بداخلها جلست خلف مقعد القيادة كانت الساعة قاربت على التاسعة مساء، أنزلت ريم على مقربة من بيتها وسط ذهولها وعدم فهمها ثم انطلقنا فى طريقنا إلى منزل سامية.

وقفت بالسيارة أمام منزل"سامية التى تفاجأت بى
التفت إليها وأسلمها مفاتيح السيارة نظرت
سامية للمفاتيح فى يدى وسألتنى
باستغراب: "إيه ده؟ قلت: "أنا مضطر
أمشى" سألت بذهول: "هو إنت مش
حتسافر معايا؟ " فهززت رأسى وقلت لها:
"ما ينفعش أسافر، أنا مكانى هنا، سافرى
إنتى وحاولى تنسى أى حاجة وحشة
حصلت فى حياتك، ومن النهاردة أوعدك
لا حتحسى بصداع أو تعب ويمكن تنسى
إنك قابلتينى أصلا" قالت بخوف: "إنت
مجنون؟ إنت لو فضلت هنا حيتقبض
عليك" ربت على كتفها مطمئننا: "ما
تقلقيش عليه، أنا حروح مكان ماحدش
حيعرف يوصلى" تساءلت بقلق: "حتروح

فين؟ "استدرت لأفتح باب السيارة خارجًا وقلت
مبتسما: "حرجع مكانى إللى جيت منه".
خرجت من السيارة وسرت شاردًا هائمًا على
وجهى عدة أيام حتى قادتنى قدماى إلى
المقابر حيث يرقد الأحبة.
عندما وصلت كان الظلام والسكون يخيمان على
المكان نظرت إلى السماء فوجدت القمر
يتلألأ بزهو فى وسط السماء يلقى بظلاله
الفضية ومن حوله النجوم تتراقص فى
انسجام كانت ليلة ربيعية جميلة، الغريب
أننى لم أعد أهاب الظلام أو سكون
القبور اعتدت عليهما بل أصبحا ملاذى
وسكنى الوحيد، وما إن دخلت من بوابة
المقابر الحديدية حتى استقبلتنى نسمات
الهواء المنعش المحملة بعطر زهرة

التوليب التى أعرفها جيدًا والتى لطالما عشقتها..
أخذت نفسًا عميقًا ملأ صدرى بالحب والحياة، أصغيت لصوت آت من بعيد فرقص قلبى طربا عندما سمعت صوت صغيرتى يتردد فى أرجاء المكان كانت تنادى على بصوتها العذب الممزوج بضحكاتها الشقية "هانى هانى" جريت مهرولًا متلهفًا انتبع مصدر الصوت متلفتًا حولى أبحث عنها يمينا ويسارًا وأدور حول نفسى عدة دورات فكانت تزداد ضحكاتها وضوحًا واستمرت "إلهام" تداعبنى وتنادى: "هانى هانى تعالى أنا هنا " سرت أتخبط بين القبور أمشى خطوة فأتعثر وأقع.. كنت أبحث عنها كالمجنون فى كل مكان حتى وجدت

نفسى أقف أمام شاهد قبر قرأت على ضوء القمر
هنا ترقد عصفورة الجنة إلهام عادل
عبدالتواب ابتسمت لها وقلت: "أخيرًا لقيتك
يا شقية" جلست على الأرض منهكا
بجانب قبرها كنت مشتاقًا إليها ولحديثى
معها وضعت رأسى على قبرها وأخذت
أربت عليه بحنان: "وحشتينى يا إلهام" ثم
أكملت هامسا: "دلوقتى تقدرى تستريحى
وتنامى فى أمان، أخوكى وفى بعهده
معاكى، وآخد بتارك، نامى يا حبيبتى
واستريحى.. تعرفى يا إلهام أن بابا وماما
كمان وحشونى أوى، بس كلكم مشيتوا
وسبتونى، وبقيت وحيد ما حدش فيكم فكر
ياخدنى معاه" كنت أشعر بصغيرتى
تنصت إلىَّ باهتمام وشوق ثم أكملت

"طول عمرى يا لومى كنت بحبك أكتر من روحى إنتى ما كنتيش أختى الصغيرة إنتى كنتى بنتى، تعرفى يا لومى إن أول ما اتولدتى كنت أنا أول واحد شالك، وأول ما اتعلمتى الكلام أنا أول واحد نطقتى اسمه، أنا عارفك لما بتخافى بتحبى تستخبى فى حضنى، بس أنا دلوقتى إللى محتاج استخبى فى حضنك، أنا تعبان أوى يا حبيبتى خلينى ارتاح جنبك إنتى وماما وبابا، احتضنتها بقوة وأغمضت عينى إلى الأبد.